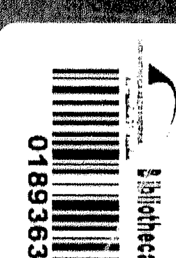
ماريو بارغاس يوسا

تداح الخالة



ترجمة: صالح علماني



منشـورات





٦٥

Author :Mario Vargas Llosa,1988	اسم المـؤلف : ماريو بارغاس يوسا
Title : Elogio de la madrastra	عنوان الكتـاب : امتداح الخالة
Translator: saleh Almani	ترجـمـة : صالح علماني
Al- Mada : Publishing Company	النـاشـر : المدى
First Edition 1999	الطبـعـة الأولى : ١٩٩٩

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٧٧٢٠١٩ – ٢٧٧٦٨٦٤ – فاكس : ٢٧٧٣٩٩٢

بيروت – لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ – ١١ فاكس . ٤٢٦٢٥٢ – ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P O Box . : 8272 or 7366 . Tel: 2776864 , Fax: 2773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

ماريو بارغاس يوسا

امتداح الخالة

ترجمة

صالح علماني



« ١ »

عيد ميلاد دونيا لوكريثيا

في اليوم الذي أكملتْ فيه أربعين سنة من عمرها ، وجدت دونيا لوكريثيا على وسادتها رسالة ذات خط طفولي ، مكتوبة بكثير من المحبة :

«عيد ميلاد سعيد يا خالتي!

لستُ أملك نقوداً لكي أهدي إليك أي شيء ولكنني سأدرس كثيراً ، وسأنال المرتبة الأولى وتكون هذه هي هديتي إليك . أنت الأطيب والأجمل ، وأنا أحلم بك كل ليلة .

عيد ميلاد سعيد مرة أخرى!

ألفونسو»

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل وكان دون ريغوبيرتو في الحمام منهمكاً في اغتساله وتنظيفاته المعقدة والبطيئة التي يقوم بها قبل النوم . (فقد كانت النظافة الجسدية ، بعد لوحات الرسم الايروتيكية ، هي عمله المفضل لتزجية الوقت ؛ أما النظافة الروحية فلم تكن تهمه كثيراً) . وقد تأثرت دونيا لوكريثيا برسالة الطفل وأحست بدافع لا يقاوم يدفعها للذهاب لرؤيته وتقديم الشكر له . فتلك السطور هي دليل على قبولها ضمن

الأسرة حقاً . أيكون مستيقظاً ؟ وما أهمية ذلك! إن لم يكن مستيقظاً ، ستقبّل جبهته بحذر كبير كيلا توقظه .

بينما هي تنزل درجات السلم المغطاة بالسجاد في البيت الغارق في الظلام ، متوجهة إلى غرفة نوم ألفونسو ، كانت تفكر : «لقد كسبته إلى جانبي ، لقد صار يحبني» . وبدأت مخاوفها القديمة من الطفل تتبخر مثل سحابة ضباب خفيفة تنخرها شمس ليما الصيفية . لقد نسيتْ أن تلقي على جسدها الروب البيتي ، فهي عارية تحت قميص نومها الحريري الأسود ، وتكوراتها البيضاء الوافرة التي ما زالت صلبة متماسكة ، تبدو وكأنها تطفو في الظلمة التي تقطعها انعكاسات أضواء الشارع . كان شعرها الطويل مفلتاً ، ولم تكن قد خلعت أقراط وخواتم وعقود الحفلة .

كانت غرفة الطفل مضاءة . ـ أجل ، ففونتشو يقرأ حتى وقت متأخر جداً! ـ طرقت دونيا لوكريثا بفقرات أصابعها ودخلت : «ألفونسيتو!» . وفي مخروط الضوء الأصفر الذي يبعثه مصباح السرير ، أطل وجه طفلٍ يسوع مذعور من وراء كتابٍ لألكسندر دوماس . خصل الشعر الذهبي المشعث ، الفم المفتوح قليلاً بسبب المفاجأة يبدي صفي أسنان ناصعة البياض ، العينان الكبيرتان الزرقاوان الزائغتان تحاولان تبينها في ظلمة عتبة الباب . بقيت دونيا لوكريثيا جامدة ، تتأمله بعذوبة . يا للطفل الجميل! ملاك منذ مولده ، واحد من غلمان تلك اللوحات الفاجرة التي يخبئها زوجها وراء أربعة أقفال .

ـ أهذه أنت يا خالتي ؟

ـ أي رسالة جميلة كتبتها لي يا فونتشو . إنها أفضل هدية عيد ميلاد تلقيتها طوال حياتي ، أقسم لك .

كان الطفل قد نهض ووقف على قدميه فوق السرير . وكان يبتسم لها

وذراعاه مفتوحان . وبينما دونيا لوكريثيا تتقدم نحوه مبتسمة أيضاً ، فوجئت ـ أم تراها حدست ؟ ـ في عيني ابن زوجها ، بنظرة تتحول من السعادة إلى الاضطراب وتنصبّ ذاهلة على قامتها ، ففكرت : «رباه ، إنك شبه عارية . كيف نسيت ارتداء الروب أيتها الحمقاء . أي مشهد هذا بالنسبة إلى الصغير المسكين .» أتكون قد شربت كؤوس خمر أكثر مما يجب ؟

ولكن ألفونسيتو عانقها : «عيد ميلاد سعيد يا خالتي!» كان صوته الطازج المنطلق دون قلق يعيد الحيوية إلى الليل . أحست دونيا لوكريثيا بشبح القامة ذات العظام الهشة يلتصق بجسدها وفكرت بعصفور صغير . وخطر لها بأنها إذا ما ضمته بقوة أكبر ، فإن الطفل سينكسر مثل نبتة كاريثو . وهكذا ، بينما هو فوق السرير ، كانا متساويين في طول القامة . كان قد طوق عنقها بذراعيه النحيلتين وراح يقبلها بحب من خدها . وعانقته دونيا لوكريثيا أيضاً ، وأنزلقت إحدى يديها إلى أسفل قميص البيجاما ذات اللون الأزرق البحري والحواف الحمراء ، وداعبت ظهره وربتت عليه ، شاعرة في أطراف أصابعها بتدرج عموده الفقري الهش . «أحبك كثيراً يا خالتي» ، همس الصوت النحيل في أذنها ، وأحست دونيا لوكريثيا بشفتين نحيلتين تتوقفان عند شحمة أذنها ، تدفئانها بأنفاسهما ، تقبلانها وتعضانها لاعبتين . وبدا لها أن ألفونسيتو يضحك في الوقت الذي يتودد فيه إليها . كان صدرها طافحاً بالتأثر والانفعال . وفكرت كيف أن صديقاتها كن قد تنبأن بأن ابن زوجها هذا سيكون العقبة الكبرى ، وأنها بسببه لن تكون سعيدة أبداً مع ريغوبيرتو . وفي خضم تأثرها وانفعالها ، قبلته أيضاً من خديه ، من جبهته ، من شعره المشعث ، بينما كان إحساس غامض ، كأنه آت من بعيد ، دون أن تدركه جيداً ، يتسرب بين فينة وأخرى من جسدها ،

متركزاً بصورة خاصة في تلك الأجزاء ـ النهدين ، البطن ، ظاهر الفخذين ، العنق ، الكتفين ، الخدين ـ المعرضة لملامسة الطفل . «هل تحبني كثيراً حقاً ؟» سألته وهي تحاول الابتعاد عنه . لكن ألفونسيتو لم يفلتها ، بل إنه تعلق بها وهو يجيبها مترنماً : «كثيراً جداً يا خالتي ، أنت أكثر من أحبه» . ثم أمسكت يداه الصغيرتان بصدغيها ودفعتا رأسها إلى الوراء . أحست دونيا لوكريثيا بنقرة في جبهتها ، في عينيها ، في حاجبيها ، في خديها ، في ذقنها... وعندما لامست الشفتان النحيلتان شفتيها ، ضغطت على أسنانها مضطربة ، أيفهم فونتشيتو ما الذي يفعله ؟ هل يتوجب عليها أن تبعده عنها بعنف ؟ ولكن لا ، لا ، كيف يمكن أن يكون هناك أدنى قدر من الخبث في التنقل المتقافز لهاتين الشفتين اللتين حطتا لحظة ، مرتين... ثلاث مرات على شفتيها وضغطتا بنهم وهما تجوبان جغرافية وجهها .

ـ حسن ، والآن إلى النوم ـ قالت أخيراً وهي تفلت من الطفل . وبذلت جهداً أكبر لتبدو أكثر سكوناً مما هي عليه ، ثم أضافت : ـ وإلا لن تستيقظ من أجل الذهاب إلى المدرسة يا صغيري .

دس الطفل نفسه في السرير منصاعاً . كان ينظر إليها مبتسما ، بخدين متوردين ونظرة افتتان . أي خبث يمكن أن يكون فيه! هذا المخلوق النقي ، عيناه الفرحتان... الجسد الصغير الذي ينكمش ويتقوقع تحت الملاءات ، أليس تجسيداً للبراءة ؟ أنت هي المتعفنة يا لوكريثيا! دثرته ، سوت وسادته ، قبّلت شعره وأطفأت مصباح السرير . وحين كانت تخرج من الغرفة ، سمعته يغرد :

ـ سأحصل على المرتبة الأولى في المدرسة وأهديها إليك يا خالتي!

ـ أهذا عهد يا فونتشيتو ؟

ـ كلمة شرف!

وفي حميمية السلّم المتواطئة ، بينما هي عائدة إلى مخدعها ، أحست دونيا لوكريثيا بأنها تتوقد من قدميها إلى رأسها . وقالت لنفسها مذهولة : « ولكنها ليست حمى » . أيمكن لمداعبة طفل غير واعية أن تسبب لها ذلك ؟ إنك تتحولين إلى داعرة يا امرأة . أتكون هذه هي أول أعراض الشيخوخة ؟ لأنها في الواقع كانت تلتهب وكانت ساقاها مبللتين . يا للعار يا لوكريثيا ، يا للعار! وفجأة عبرت رأسها ذكرى صديقة خليعة كانت قد أثارت مشاعر الحياء والضحكات العصبية على طاولتها أثناء حفلة شاي لجمع تبرعات للصليب الأحمر ، حين روت لهن أنها تنام عارية مع ابن زوجها الصغير الذي يحك لها ظهرها ، فتتأجج مثل شعلة .

كان دون ريغوبيرتو مستلقياً على ظهره ، عارياً فوق الفراش الأحمر القاني المطبع برسوم تشبه العقارب . وكان لا يكاد يظهر منه على وميض الأنوار المتسربة من الشارع إلى الغرفة مطفأة الأنوار ، سوى شبحه الطويل الأبيض ، والشعر الكثيف على الصدر والعانة . وقد بقي ساكناً بينما كانت دونيا لوكريثيا تنزلق وتتمدد بجانبه ، دون أن تلمسه . أيكون زوجها قد نام ؟

ـ أين ذهبتِ ؟ ـ سمعته يدمدم بالصوت اللزج والبطيء لرجل يتكلم بخرخرة الوهم ، الصوت الذي تعرفه جيداً ـ لماذا تركتني يا حياتي ؟

ـ ذهبتُ لأقبل فونتشيتو . لقد كتب لي رسالة عيد ميلاد لا يمكنك تخيلها . كنتُ على وشك البكاء من شدة رقتها .

حدست أنه لا يكاد يسمعها . أحست بيد دون ريغوبيرتو اليمنى تلامس فخذها . إنها حارقة ، مثل مضخة ماء يغلي . وبحثت أصابعه بتعثر ما بين طيات قميص نومها . ففكرت بقلق : «أتراه سيلاحظ أنني مبللة» . كان قلقاً عابراً ، لأن موجة الاحتدام نفسها التي استولت عليها وهي على السلّم ،

عادت إلى جسدها ، وجعلته يرتعش . بدا لها أن كل مساماتها تتفتح متلهفة وتنتظر .

ـ وهل رآكِ فونتشيتو وأنت بقميص النوم ؟ ـ تخيل صوت زوجها ملتهباً ـ . لا بد أنك قد أوحيت بأفكار خبيثة إلى الصغير . ربما سيحلم هذه الليلة أول أحلامه الايروتيكية .

سمعته يضحك متهيجاً ، وضحكت هي أيضاً : «ما الذي تقوله يا مجنون» . وتظاهرت في الوقت نفسه بأنها تضربه ، وتركت يدها اليسرى على بطن دون ريغوبيرتو . ولكن ما لمسته يدها كان سارية بشرية منتصبة ونابضة .

ـ ما هذا ؟ ما هذا ؟ ـ هتفت دونيا لوكريثيا وهي تضغط عليه ، وتشده ، وتفلته ، وتستعيده ـ ، انظر ما الذي وجدته ، يا للمفاجأة!

كان دون ريغوبيرتو قد رفعها فوقه وراح يقبلها بتلذذ ، مرتشفاً شفتيها ، ومباعداً ما بينهما . وبينما عيناها مغمضتان ، وهي تحس بطرف لسان زوجها يستكشف تجويف فمها ، ماراً على اللثتين والحلق ، محاولاً تذوق كل شيء والتعرف عليه ، بقيت دونيا لوكريثيا لوقت طويل غارقة في ذهول سعيد ، إحساس كثيف ونابض بدا وكأنه يلين أعضاءها ويفتحها ، ويجعلها تطفو ، تغرق ، تدور . وفي عمق ذلك الإعصار اللذيذ كانت هي ، والحياة ، وكأنها تطل وتختفي في مرآة تفقد زئبقها ، ترسم أحياناً وجهاً دخيلاً لملاك أشقر . كان زوجها قد رفع قميص نومها وأخذ يداعب إليتيها في حركة دائرية ومنهجية ، بينما هو يقبّل نهديها . سمعته يدمدم بأنه يحبها ، ويهمس بعذوبة أن حياته الحقيقية قد بدأت معها . قبلته دونيا لوكريثيا من عنقه وعضعضت حلمتي صدره إلى أن سمعته يتأوه ، ثم لحست ببطء عشي إبطيه اللذين يهيجانه كثيراً ، واللذين كان دون ريغوبيرتو قد

غسلهما وعطرهما لها بعناية قبل أن ينام . سمعته يخرخر مثل قط مدلل ، يتلوى تحت جسدها . وأخذت يداه المتسرعتان تبعدان ما بين ساقي دونيا لوكريثيا بشيء من الحنق . تجلسانها القرفصاء فوقه ، تريحانها ، تفتحانها . أنّتْ متألمة ومستمتعة بينما هي ترى في زوبعة مشوشة صورةً للقديس سيباستيان مصاباً بسهم ، مصلوباً ومبللاً . راودها إحساس بأنها قد نُطحت في منتصف قلبها . ولم تتمهل بعدئذ . فقد أغمضت عينيها ، ووضعت يديها وراء رأسها ، ودفعت صدرها إلى الأمام ، ممتطية مهر الحب ذاك الذي يتأرجح بها ، على إيقاعه ، مدمدماً بكلمات تكاد لا تكون مفهومة ، إلى أن أحس بأنه يموت .

وسألته مستفهمة وهي في العماء :

ـ من أنا ؟ من تراني كنت ؟

وانفجر دون ريغوبيرتو تائهاً في حلمه :

ـ أنتِ زوجة ملك ليديا يا حبي .

« ٢ »

قنداولس، ملك ليديا [1]

أنا قنداولس ، ملك ليديا ، البلد الصغير الواقع ما بين جونيا وكاريا ، في قلب تلك الأراضي التي ستُعرف بعد قرون باسم تركية . أكثر ما يسبب لي الفخر في مملكتي ليس جبالها المتشققة بفعل الجفاف ، ولا رعاة ماعزها الذين يسارعون إذا اقتضى الأمر إلى مواجهة الغزاة الفريجيين والإيوليين والدوريين الآتين من آسيا ، ويهزمونهم ، أو يتصدون للعصابات الفينيقية والإسبارطية وللبدو الرحل الاسثيتيين الذين يأتون لسلب حدودنا ، وإنما مصدر فخري هو ردف زوجتي لوكريشيا .

أقول وأكرر : رِدْف . لا مؤخرة ، ولا كفل ، ولا إليتان ، ولا طيز ، ولا ورك ، وإنما ردف . لأنني عندما أمتطيها يراودني هذا الإحساس : إحساس من يكون فوق مهرة عضلية ومخملية ، مزيج من الأعصاب والرقة الخالصة . إنه ردف قاسٍ وربما هو ضخم جداً مثلما تقول الأساطير التي تشاع عنه في المملكة ، مضخمة مخيلة رعيتي (تصل إلى مسامعي كل تلك الأساطير ولكنها لا تغضبني ، بل تفرحني) . عندما أمرها بأن تجثو وتلصق جبهتها

(١) راجع اللوحة رقم (١) .

بالسجادة ، بحيث أستطيع تفحصها على هواي ، يصل ذلك الشيء إلى حجمه الفاتن الأقصى . كل فلقة منه فردوس لحمي ؛ وكلتاهما ، تفصل بينهما هوّة حساسة ذات زغب يكاد لا يكون مرئياً يغوص في غابة البياض والسواد والحرير العابق الذي يتوج عمودي الفخذين الراسخين ، فيذكراني بأحد مذابح ديانة البابليين الهمجية التي محوناها . إنه ردف صلب عند اللمس وعذب في الشفتين ؛ فسيح في الاحتضان ودافئ في الليالي الباردة ، ووسادة طرية لإراحة الرأس ، ومولّد للذات في الهجمات الغرامية . وُلوجه ليس سهلاً ؛ بل هو أقرب إلى الألم في البدء ، ويصل إلى حد البطولة بالمقاومة التي يبديها هذا اللحم الوردي للهجوم الذكري . لا بد من إرادة عنيدة وقضيب قوي ومثابر لا يرتدعان أمام أي شيء أو أحد مثلما هما إرادتي وقضيبي .

عندما قلت لجيجيس ، ابن داسيلو ، حارسي ووزيري بأنني فخور بمآثر عضوي مع لوكريثيا على السرير الفاخر ذي الستائر الذي في مخدعنا أكثر من اعتزازي بمآثري في ميدان المعركة أو إنصافي في إقامة العدل ، احتفل هو ضاحكاً بما ظنه مزحة . ولكنها لم تكن مزحة : لأني أشعر بذلك فعلاً . وأشك في أنه يمكن لكثيرين من أهالي ليديا أن ينافسوني . في إحدى الليالي ـ وكنتُ مخموراً ـ ومن أجل التقصي فقط ، استدعيت أطلس إلى حجرتي ، وهو أفضل العبيد الحبشيين تحت السلاح . وطلبت من لوكريثيا أن تنحني أمامه وأمرته بأن يمتطيها . لم يستطع ذلك ، ربما بسبب الرهبة التي اعترته في حضوري أو لأن الأمر كان تحدياً يفوق قواه . رأيته يتقدم عدة مرات ، حاسماً أمره ، يندفع ، يلهث ، ثم يتراجع مهزوماً (وبما أن تلك الواقعة صارت تعذب ذاكرة لوكريثيا ، فقد أمرتُ بقطع رأس أطلس) .

الواقع أنني أحب الملكة . فكل ما في زوجتي عذب وحساس ، على خلاف روعة ردفها الوافر : يداها وقدماها ، خصرها وفمها . لها أنف راعش وعينان ناعستان ، ماؤهما ساكن بصورة سرية لا يهزه سوى اللذة أو الغضب . لقد درستها مثلما يفعل الحكماء بأوراق كتب المعبد ، ومع أنني أظن بأني أعرفها عن ظهر قلب ، فإنني أكتشف في كل يوم - أو بكلمة أصح ، في كل ليلة - ، شيئاً جديداً فيها يؤثر بي : خط الكتفين الناعم ، عظمة المرفق الرشيقة ، رقة ظاهر قدميها ، استدارة ركبتيها والشفافية الزرقاء لغابة إبطيها .

هناك من يملون زوجتهم الشرعية بسرعة . ويفلسفون الأمر بأن روتين الزواج يقتل الشهوة ، وأنه لا يمكن للخيال أن يدوم ويهيج أوردة الرجل الذي يضاجع المرأة نفسها على امتداد شهور وسنوات . أما أنا ، وعلى الرغم من السنوات التي انقضت على زواجنا ، فإن سيدتي لوكريثيا لم تملني . ولم تضجر مني مطلقاً . فعندما أذهب لصيد النمر أو الفيل ، أو حين أخرج إلى الحرب ، تُسرّع ذكراها قلبي مثلما كان يحدث في الأيام الأولى ، وحين أداعب إحدى الجاريات أو أية امرأة لأشغل وحدتي في ليالي خيمة الحملة الحربية ، تحس يداي على الدوام بخيبة محزنة : فما ألمسه يكاد لا يكون سوى مؤخرات ، إليات ، أكفال ، أطياز . وهي وحدها - آه ، حبيبتي - الردف . ولهذا يبقى قلبي وفياً لها ؛ ولهذا أحبها . ولهذا أنظم لها قصائد أرتلها في مسمعها وأنبطح أرضاً حين نكون وحدنا لأقبل قدميها . ولهذا ملأت صناديق حليّها وكل خزائنها وأوصيت لها من كل أركان العالم على هذه الأحذية والملابس والزينات التي لن تنتهي من تدشينها أبداً . ولهذا أعني بها وأوقرها باعتبارها ألذ ممتلكات مملكتي . فالحياة بالنسبة إلي هي موت دون لوكريثيا .

القصة الحقيقية لما حدث مع حارسي ووزيري جيجيس لا تشبه كثيراً التقولات التي تشاع عن الواقعة . وليست هناك رواية واحدة مما سمعته تقارب الحقيقة . والأمر يجري هكذا على الدوام : فمع أن للخيالي والحقيقي القلب نفسه ، إلا أن وجهيهما مثل الليل والنهار ، مثل النار والماء . لم يكن هناك رهان أو مقايضة من أي نوع ؛ وكل شيء جرى بصورة مرتجلة ، بفعلة تلقائية مفاجئة من جانبي... مجرد صدفة أو مكيدة من إله صغير لعوب .

كنا قد حضرنا احتفالاً لانهائياً في ميدان مجاور للقصر ، حيث جاءت القبائل الخاضعة لتقدم اتاواتها وهي تصم مسامعنا بأغنياتها الهمجية وتعمي أبصارنا بالغبار الذي تثيره بهلوانيات فرسانها . ورأينا كذلك اثنين من هؤلاء المشعوذين الذين يشفون الأمراض برماد الجثث ، وقديساً يصلي وهو يلف ويدور على كعبيه . وقد كان هذا الأخير مؤثراً : ففي دورانه المندفع بقوة إيمانه وبالتمارين التنفسية التي ترافق رقصته ـ لهاث أبح متصاعد يبدو وكأنه يخرج من أعماقه ـ تحول إلى دوامة بشرية ، وفي لحظة معينة ، أدت سرعة دورانه إلى اختفائه عن أبصارنا . وعندما تجسد ثانية وتوقف ، كان يتعرق مثل الخيول بعد شن الغارة ، وكان شحوبه ذاهلاً وعيناه زائغتين وكأنهما قد رأتا إلهاً أو عدة ألهة .

كنا نتحدث أنا ووزيري عن المشعوذين وعن ذلك القديس بينما نحن نتناول كأس نبيذ يوناني ، عندما خفض جيجيس صوته فجأة ليهمس بشرارة الخبث تلك التي يودعها الشراب في نظرته :

ـ المصرية التي اشتريتها لها أفضل مؤخرة منحتها العناية الإلهية لامرأة على الإطلاق . الوجه غير مكتمل ؛ والنهدان صغيران ، وهي تتعرق بإفراط ؛ ولكن ضخامة وسخاء مؤخرتها تعوض ـ وأكثر ـ عن كل عيوبها الأخرى . ما إن أتذكرها حتى يصيبني الدوار يا صاحب الجلالة .

ـ أرني هذه المؤخرة وسأريك واحدة أخرى . فنقارن ونقرر أيهما أفضل يا جيجيس .

رأيته يضطرب ، يرمش ويفتح شفتيه دون أن يقول شيئاً . أتراه ظن بأنني أمزح ؟ أتراه خشي أن يكون قد أساء سماع ما قلته ؟ فحارسي ووزيري يعرف جيداً عمن أتكلم . وصغت ذلك السؤال دون تفكير ، ولكنني بعد أن وجهته إليه ، بدأت دودة عذبة تقرض دماغي وتسبب لي اللهفة :

ـ لقد أصابك البكم يا جيجيس . ما الذي جرى لك ؟

ـ لست أدري ما أقول يا مولاي . إنني مرتبك .

ـ أرى ذلك . ولكن أجب . هل توافق على عرضي ؟

ـ جلالتك تعلم أن رغباتكم هي رغباتي .

هكذا بدأ كل شيء . ذهبنا أولاً إلى منزله ، وفي أقصى الحديقة ، حيث توجد حمامات البخار ، وبينما كنا نتعرق وكان مدلكه يعيد حيوية الشباب إلى أعضائنا ، تفحصتُ تلك المصرية . إنها امرأة طويلة القامة ، ووجهها متضرر بتلك القروح التي يقدس بها أبناء جنسها الفتيات البالغات لإلههم الدموي . لقد خلّفت الشباب وراءها . ولكنني أقر بأنها كانت مشوقة وجذابة . فبشرتها الأبنوسية تلمع وسط سحب البخار وكأنها مطلية بالورنيش وكل حركاتها وتصرفاتها تكشف عن تكبر استثنائي . لم يكن فيها أي أثر من ذلك التذلل الدنيء الذي تبديه الجاريات بكثرة لنيل ودّ أسيادهن ، بل كانت أقرب إلى البرودة المتأنقة . ولم تكن تفهم لغتنا ولكنها كانت تفهم على الفور التعليمات التي يصدرها إليها سيدها بالإشارة . وعندما أشار عليها جيجيس بما نريد أن نراه ، أحاطتنا كلينا لثوان بنظرتها الحريرية والمزدرية ، ودارت نصف دورة ، وانحنت ثم رفعت عباءتها بكلتا يديها ، مقدمة لنا عالمها الخلفي . كانت باهرة بالفعل ، بل وإعجازية لمن

ليس هو زوج الملكة لوكريثيا . أجل ، إنها صلبة ومكورة . ذات انحناءات ناعمة وبشرة جرداء وحبيبية ، تشع بريقاً أزرق ، ينزلق عليها البصر مثلما ينزلق على مرأى البحر . هنأتها وهنأت كذلك حارسي ووزيري لأنه مالك مثل هذه اللذة الحلوة .

ولكي أنجز الجزء المتعلق بي من العرض ، كان علينا أن نتصرف بأقصى قدر من الحذر . فتلك الحادثة القديمة مع العبد أطلس شكلت صدمة عميقة لامرأتي ، وقد قلت هذا من قبل ؛ إذ أنها وافقت عليها لأن لوكريثيا تلبي كل نزواتي . ولكنني رأيتها خجلة جداً بينما كانت هي وأطلس يمثلان دون جدوى المشهد الخيالي الذي نسجتُه ، فأقسمت يومئذ بيني وبين نفسي ألا أخضعها ثانية إلى مثل تلك التجربة . وحتى الآن ، وبعد مضي زمن طويل على تلك الحادثة ، وحين لم يعد هناك من أطلس المسكين كما أظن سوى عظامه الجرداء في وهدة الجثث التي تغص بطيور الرخمة والنسور حيث ألقيت جثته ، ما زالت الملكة تستيقظ أحياناً في الليل ، وتفز قلقة إلى ذراعي ، ذلك أن شبح الحبشي يكون قد عاد يلتهب فوقها في الحلم .

وهكذا ، فقد تصرفتُ في هذه المرة دون أن تعرف محبوبتي بالأمر . أو هذه كانت نيتي على الأقل ، مع أن الشك يراودني في ذلك أحياناً حين أفكر مترويأ بما حدث في تلك الليلة وأقلبه في ثنايا ذاكرتي .

أدخلتُ جيجيس من بوابة الحديقة الخلفية ثم أدخلته الحجرة بينما الوصيفات يعرين لوكريثيا ويعطرنها بالعطور التي أحب شمها وتذوقها على جسدها . أشرت على وزيري أن يختبئ وراء ستارة الشرفة وأن يحاول عدم التحرك أو إصدار أدنى صوت . ومن ذلك الركن ، يمكنه أن يرى تماماً السرير البديع ذا الأعمدة المزخرفة والدرجات والستائر الحمراء ، والمثقل بالوسائد والحرائر الثمينة المطرزة ، حيث نمارس أنا والملكة كل ليلة

لقاءاتنا الغرامية . وأطفأت كل المشاعل بحيث تبقى الغرفة خافتة الإضاءة من ألسنة لهب المشاعل التي في البيت .

بعد قليل دخلت لوكريثيا ترفل بعباءة فضفاضة شفافة من الحرير الأبيض ، ذات زركشات مخرمة على المعصمين والعنق ومحيط الذيل . وكانت تضع عقداً من اللؤلؤ وغطاء رأس وتنتعل خفاً عالي الكعب من الخشب واللبد .

أبقيتها واقفة لبعض الوقت ، أتأملها بإعجاب بعيني وأهدي إلى وزيري هذا المشهد الذي يليق بالآلهة . وبينما أنا أتأملها وأفكر في أن جيجيس يفعل ذلك أيضاً ، أججني فجأة بالشهوة هذا التواطؤ الخبيث الذي يوحدنا . فتقدمت نحوها دون أن أنطق بكلمة واحدة ، وطرحتها على الفراش وامتطيتها . وبينما أنا أداعبها ، بدا لي وجه جيجيس الملتحي ، فزادت من التهابي فكرة أنه يرانا ، ورشت على لذتي بهاراً حلواً وحامضاً ولاذعاً كنت أجهله حتى ذلك الحين . وماذا عنها هي ؟ أتراها لاحظت شيئاً ؟ هل عرفتْ شيئاً ؟ لأنني لم أرها من قبل أبداً بمثل ذلك الاندفاع ، ولم أرها مطلقاً بمثل تلك الشراهة في المبادرة والاستجابة ، وبمثل تلك الجسارة في العض والتقبيل والعناق . أتراها هجست في تلك الليلة بأننا من كنا نستمتع في الغرفة المصبوغة بحمرة القنديل والشهوة لم نكن اثنين وإنما ثلاثة .

وعند الفجر ، حين استغرقت لوكريثيا في النوم ، تسللتُ من السرير على رؤوس أصابعي ، لكي أقود حارسي ووزيري إلى مخرج الحديقة ، فوجدته يرتجف من البرد والذهول .

تلعثم متهيجاً ومرتعشاً :

ـ أنت محق يا صاحب الجلالة . لقد رأيتها ، وهي رائعة بصورة لا أستطيع تصديقها . لقد رأيتها ومازلت أظن أنني في حلم .

فأمرته :

ـ انس كل شيء بأسرع ما يمكن وإلى الأبد يا جيجيس . لقد أنعمتُ عليك بهذا الامتياز في لحظة تسرع غريبة ، ودون تفكير وترو ، لأنني أقدرك كثيراً . ولكن ، حذار من لسانك . فأنا لا أحب أن تتحول هذه القصة إلى حديث الحانات وتقولات السوق . لأني قد أندم على أنني أحضرتك إلى هنا .

أقسم لي أنه لن ينطق بكلمة واحدة . ولكنه فعل ذلك . وإلا كيف دارت كل تلك الأحاديث عما حدث ؟ الروايات تتناقض ، وكل واحدة منها أكثر شططاً وزيفاً من الأخرى . إنها تصل إلينا ، وإن كنا نغضب بسببها في البداية ، فإننا نتسلى بها الآن . لقد تحول الأمر إلى جزء من هذه المملكة الجنوبية ، في هذه البلاد التي سيصبح اسمها تركية بعد قرون ، مثل جبالها القاحلة ورعاياها الأفظاظ ، مثل قبائلها المتنقلة ، ونسورها ودببتها . ولا تسؤوني في نهاية المطاف فكرة أنه بعد مرور الزمان ، وابتلاعه كل ما هو موجود ومحيط بي الآن ، لن يبقى للأجيال القادمة في تاريخ ليديا ، سوى ردف زوجتي لوكريثيا الشمسي والسخي كالربيع .

« ٣ »

أذنا يوم الأربعاء

« إنهما مثل القواقع التي تحبس في متاهتها الصدفية موسيقى البحر » ، هذا ما تخيله دون ريغوبيرتو . فقد كانت أذناه كبيرتين جداً ومرسومتين جيداً ؛ وكلتاهما ، وإن كانت اليسرى بصورة أساسية ، تنزعان إلى الابتعاد عن رأسه في الأعلى وتنحني كل منهما ملتفة على نفسها ، مصممتين على أن تحتكرا لنفسيهما وحدهما كل ضجيج العالم . ومع أنه كان يخجل في طفولته من حجمهما ومن شكلهما المنحني ، إلا أنه تعلّم تقبلهما . وقد وصل به الأمر إلى الإحساس بالفخر بهما بعد أن صار يكرس ليلة كاملة كل أسبوع للعناية بهما . ولأنه توصل فوق ذلك ، بقوة التجريب والإصرار ، إلى جعل هاتين الزائدتين غير الموفقتين تساهمان مع حماسة الفم أو فعالية اللمس ، في لياليه الغرامية . ولوكريثيا تحبهما أيضاً ، وتسرف في الابتسامات المفتونة بهما . وقد اعتادت في فقرات الاختلاطات الزوجية أن تقبلهما : « دومبوياي المحببين » .

« زهريتان متفتحتان ، جناحان حساسان ، مسمعان للموسيقى والحوارات » ، استشعر دون ريغوبيرتو . وكان يتفحص بالعدسة المكبرة الحواف الغضروفية لأذنه اليسرى . أجل ، لقد برزت مرة أخرى رؤوس

الشعيرات التي اقتلعها يوم الأربعاء الماضي . إنها ثلاث شعرات ، غير متناظرة ، مثل النقاط الثلاث التي تتشكل منها أضلاع مثلث متساوي الساقين . وتصور منفضة الريش السوداء التي ستتحول إليها تلك الشعيرات إذا ما تركها تنمو ، إذا ما امتنع عن إزالتها ، وداهمه إحساس عابر بالقرف . وبسرعة ، بالمهارة التي توفرها المثابرة على الممارسة ، أمسك تلك الرؤوس الشعرية بفكي الملقط وانتزعها واحدة بعد أخرى . الشدة المدغدغة التي رافقت الانتزاع سببت له قشعريرة لذيذة . وخطر له عندئذ أن دونيا لوكريثيا ، بأسنانها البيضاء المنتظمة ، تحلج ، وهي مقرفصة ، شعر عانته الأجعد . فوفر له هذا الخاطر نصف انتصاب . فكبحه على الفور متخيلاً امرأة غزيرة الشعر أذناها راكدتان بأجمتي شعر متهدلتين وفي ظلالهما المرتعشة يوجد بثر يلفظ حبيبات عرق . وعندئذ تذكر أن أحد زملائه في مهنة التأمين كان قد روى له ، في تلك المرة ، لدى عودته من إجازة في منطقة الكاريبي ، أن الملكة دون منازع في أحد مواخير سانتو دومنغو هي خلاسية خشنة لها ما بين نهديها قنزعة شعر لا يمكن تصورها . حاول أن يتخيل لوكريثيا بمثل تلك الميزة ـ خصلة حريرية! ـ بين نهديها العاجيين فأحس بالرعب . واعترف لنفسه : «إنني ممتلئ بالأحكام المسبقة الجاهزة في القضايا الغرامية» . ولكنه غير مستعد في الوقت الراهن للتخلي عن أي من تلك الأحكام . فالشعر أمر جيد ، وهو من التوابل الجنسية القوية ، شريطة أن يكون في أماكن معينة . على الرأس وفي قمة فينوس ، جيد التسريح ودون إفراط ؛ ويمكن التسامح به تحت الإبطين مرة ، من أجل التجريب ومعرفة كل شيء (وهذا هاجس أوربي كما يبدو) أما على الذراعين والساقين فلا وألف لا ؛ وبين النهدين ، مطلقاً وأبداً!

«هذه الليلة لن أفعل شيئاً سوى سماع الحب» ، قرر . وكان هذا

ممكناً ، فقد توصل إليه في مرات أخرى وقد أمتع ذلك لوكريثيا أيضاً ، على الأقل كمقدمة . «دعيني أسمع نهديك» ، سيهمس ، وسيريح بحبٍ فتحة أذنه شديدة الحساسية على حلمتي نهدي زوجته ، واحدة بعد الأخرى - فتنطبق فتحة الأذن على الحلمة مثلما تنطبق قدم في حذاء - وسيسمعهما بعينين مغمضتين ، بتوقير وذهول ، بتركيز مثلما في رفع خبز القربان ، إلى أن يسمع في سطح الحبيبات الخشنة لكل حلمة ، الصعود ، من الأعماق اللحمية ، لبعض الإيقاعات المختنقة ، ربما هي أنفاس مساماتها التي تتفتح ، وربما هو فوران دمها المندفع من التهيج .

كان ينتزع الزوائد الشعرية في أذنه اليمنى . وحدد فجأة وجود وافد غريب : فالشعرة الصغيرة الوحيدة كانت تتأرجح ، بصورة مشينة ، في منتصف شحمة الأذن . انتزعها بشَدَّةٍ خفيفة ، وقبل أن يلقي بها إلى المغسلة ليدفعها ماء الصنبور إلى المصرف ، تفحصها باشمئزاز . هل سيتواصل ظهور شعيرات جديدة في السنوات القادمة ، في أذنيه الكبيرتين ؟ ولكنه لن يتنازل أمامها على كل حال ، حتى وهو على فراش الموت ، إذا توفرت له القوة ، سيواصل تدميرها (أليس من الأصح القول تشذيبها ؟) . ولكن فيما بعد ، عندما سيرقد جسده دون حياة ، سيتمكن هذا الشعر الدخيل من الظهور على هواه ، وسينمو ويُقبِّح جثته . وسيحدث الشيء نفسه بأظفاره . وقال دون ريغوبيرتو لنفسه إن هذا المنظور هو حجة لا تدحض لصالح إحراق وترميد جثته . أجل ، فالنار تمنع حدوث تشوهات ما بعد الموت . اللهيب سيؤدي إلى إخفائه كاملاً ، وسيحبط بذلك الديدان . وأحس بالراحة لهذا الخاطر .

وبينما هو يلف كرات صغيرة من القطن على رأس دبوس شعر ويبللها بالماء والصابون لينظف الشمع المتراكم داخل الأذن ، استبق ما سيسمعه

هذان القمعان النظيفان عما قريب ، نازلاً من نهدي زوجته إلى سرتها . وهناك لن يكون مضطراً لإجهاد نفسه من أجل مفاجأة موسيقى لوكريثيا السرية ، إذ أن سيمفونية حقيقية من أصوات سائلة وصلبة ، طويلة وقصيرة ، مشوشة وصافية ، ستهرع لتكشف له حياتها الدفينة . واستبق بامتنان الانفعال الذي سيشعر به من خلال جهاز السمع هذا الذي يمسحه الآن بود مسهب ، مخلصاً إياه من القشرة الدهنية التي تتشكل فيه كل فترة معينة ، شيء من الوجود السري لجسدها : غدد ، عضلات ، أوعية دموية ، حويصلات ، أغشية ، أنسجة ، فتائل ، أنابيب ، أقنية ، كل هذه الأجهزة البيولوجية الغنية والرقيقة الكامنة تحت بشرة بطن لوكريثيا المشدودة . وفكر : «أحب كل ما هو موجود داخلها وخارجها . لأن كل ما فيها يمكن أن يكون مهيجاً» .

لم يكن يبالغ منقاداً للرقة التي يدفعها إلى الظهور دوماً في تخيلاته . لا ، لم يكن يبالغ أبداً . فبفضل إصراره المثابر ، توصل إلى حب امرأته كاملة وكل جزء منها على حدة ، حب لتفاصيل ولمجموع مركبات هذا الكون الخليوي . وهو يعرف بأنه قادر على الاستجابة الايروتيكية ، بانتصاب مفاجئ وقوي ، لتحريض أي جزء تافه منها ، بما في ذلك أشد الأجزاء تفاهة فيها ، بما في ذلك ـ بالنسبة للإنسان العادي ـ الأجزاء التي لا يمكن تصورها وأكثرها إثارة للنفور . «هنا يرقد دون ريغوبيرتو الذي أحب بطن زوجته مثلما أحب فرجها أو لسانها» ، فلسف الأمر مفكراً بأن هذه العبارة ستكون مناسبة للوحة الرخامية التي ستوضع على قبره . وهل ستكذب تلك الإشارة المأتمية ؟ في أدنى الحدود . وفكر كيف سيأخذ بالتأجج عما قريب بالتقلبات المائية التي ستفاجئ مسمعيه عندما يطبقان بجشع على معدتها الطرية ، وها هو ذا يسمع الآن الفوران السعيد للغازات المعوية ، أو الضرطة

المرحة المفرقعة ، أو الغرغرة والتثاؤب المهبلي أو التمطي الفاتر لأفعى أمعائها . وها هو ذا يسمع ، وقد أعماه الحب والشهوة ، العبارات التي اعتاد أن يكرم بها زوجته بينما هو يداعبها . «هذه الأصوات هي أنت أيضاً يا لوكريثيا ؛ إنها موسيقاكِ... الكونشيرتو الخاص بك... شخصك الرنان .» كان واثقاً من أنه قادر على التعرف على تلك الأصوات فوراً ، وعلى تمييزها عن الأصوات التي يصدرها بطن أي امرأة أخرى . وهذه فرضية ليست هناك أي فرصة لإثباتها ، لأنه لن يحاول أن يجرب أبداً سماع الحب مع امرأة أخرى . ولماذا يفعل ذلك ؟ أليست لوكريثيا أقيانوساً بلا قرار لن يتمكن ، هو الغواص العاشق ، من استكشاف كل أغواره أبداً! ودمدم : «أحبك» ، وهو يشعر بفجر انتصاب جديد . أراد تفاديه بضربة على الرأس ، أثارت فيه ـ فضلاً عن مضاعفته إلى اثنين ـ نوبة من الضحك . وسمع امرأته توشوشه من غرفة النوم : «من يضحك وحيداً ، يتذكر آثامه!» آه ، لو أن لوكريثيا تعرف ما يُضحكه .

سماع صوتها ، التأكد من قربها ووجودها ، ملأه بالسعادة . «السعادة موجودة» ، كرر ذلك ، مثلما يفعل كل ليلة . أجل ، ولكن بشرط البحث عنها حيث تكون ممكنة . في جسد المرء وفي جسد محبوبته مثلاً ؛ أو على انفراد في الحمام ؛ لساعات أو لدقائق على سرير يتقاسمه مع الشخص المنشود . لأن السعادة عابرة ، وفردية ، وثنائية بصورة استثنائية ، ونادراً ما تكون ثلاثية ، ولا يمكن مطلقاً أن تكون جماعية... بلدية . إنها مختفية ـ لؤلؤة في صدفتها البحرية ـ في بعض الطقوس والممارسات الاحتفالية التي تقدم إلى الإنسان ومضات وسراباً من الكمال . ولا بد من الرضا بهذا الفتات لكي يعيش المرء متلهفاً ويائساً ، محاولاً نيل ما هو مستحيل . وفكر بألمعية : «السعادة تختبئ بين فتحتي أذني» .

كان قد انتهى من تنظيف مجريي أذنيه ، وها هي ذي أمام عينيه كرات القطن المتضمخة بالمادة الدهنية الصفراء التي أخرجها منهما للتو . ما زال عليه أن يجففهما ، حتى لا تتبلور على قطرات الماء تلك بعض الوساخة قبل أن تتبخر . وفتل مرة أخرى كرتين من القطن على رأس دبوس الشعر وفرك مجاري أذنيه بنعومة وكأنه يدلكهما أو يداعبهما . ثم ألقى بكرات القطن إلى المرحاض وشد السلسلة ليتدفق الماء . نظف دبوس الشعر ووضعه في علبة أدوات تجميل امرأته .

نظر إلى أذنيه في المرآة من أجل تفحص أخير . وأحس بالرضا والحماسة . فها هما هذان المخروطان الغضروفيان نظيفان من الخارج والداخل ، ومستعدان للانحناء من أجل الاستماع إلى جسد المحبوبة بتوقير وشبق .

« ٤ »

عينان مثل حشرتين مضيئتين

«بلوغ الأربعين ليس بالأمر المرعب إذن» ، هكذا فكرت دونيا لوكريثيا وهي تتمطى في الغرفة المظلمة . كانت تشعر بأنها شابة وجميلة وسعيدة . السعادة موجودة إذن ؟ ريغوبيرتو يقول نعم ، «للحظات ولنا نحن الاثنين» . إنها ليست كلمة جوفاء ، وحالة لا يبلغها إلا المجانين ؟ زوجها يحبها ، وهو يثبت ذلك يومياً في ألفٍ من التفاصيل الدقيقة ، وكل ليلة تقريباً يطلب أفضالها بحمية شبابية . وهو أيضاً يبدو وكأنه قد استعاد شبابه منذ أن قررا ، قبل أربعة أشهر ، أن يتزوجا . المخاوف التي منعتها طويلاً من الإقدام على ذلك كانت قد تبخرت ـ فزواجها الأول كان كارثة وكان الطلاق احتضاراً كابوسياً بين حقوقيين جهلة وشرهين ـ . أول ما فعلته هو تغيير ديكور كل الغرف حتى لا يبقى أي شيء يذكّر بزوجة ريغوبيرتو المتوفاة ، وهي الآن تحكم هذا البيت بطلاقة ، وكأنها سيدته منذ الأزل . الطاهية السابقة وحدها هي التي أبدت لها بعض العداء وكان عليها أن تستبدلها . أما بقية الخدم فعلاقتهم بها جيدة . وخصوصاً خوستينيانا التي رفَعتها دونيا لوكريثيا إلى مرتبة وصيفة ، وتكشفت عن لقية : فهي تتمتع بالكفاءة ، والفطنة ، والنظافة والولاء الكامل .

ولكن نجاحها الأكبر يتمثل في علاقتها بالطفل . فهذا الأمر هو أكثر ما كان يؤرقها ، من قبل ، وكانت تظنه عائقاً لا يمكن تجاوزه . فعندما كان ريغوبيرتو يلح عليها بوجوب وضع حد نهائي لغرامياتهما شبه السرية والزواج ، كانت هي تفكر : «هناك ابن زوج يا لوكريثيا . لن يتحقق الزواج أبداً . فالطفل سيكرهك دوماً ، وسيجعل حياتك مستحيلة ، وسينتهي بك الأمر عاجلاً أو آجلاً إلى كراهيته أيضاً . ومتى أمكن لزوجين أن يسعدا بوجود ابن امرأة أخرى ؟» .

لم يتحقق أي شيء من هذه المخاوف . فألفونسيتو يعبدها . أجل ، هذا هو الفعل الدقيق : إنه يعبدها . وربما أكثر من اللازم . وتمطت دونيا لوكريثيا من جديد تحت الملاءات الدافئة ، متمددة ومتقلصة مثل حية متكاسلة . ألم يحرز المرتبة الأولى في المدرسة من أجلها ؟ وتذكرت وجهه المتورد ، والانتصار في عينيه السماويتين عندما قدم لها سجل علاماته :

ـ ها هي هدية عيد ميلادك يا خالتي . هل يمكنني أن آخذ قبلة ؟

ـ طبعاً يا فونتشيتو . يمكنك أن تقبلني عشر قبلات .

كان يطلب منها القبلات وتمنحه إياها في كل وقت ، بحماس يجعلها ترتاب أحياناً . هل صحيح أن الطفل يحبها إلى هذا الحد ؟ أجل ، فقد كسبته إلى جانبها بكل تلك الهدايا وذلك التدليل منذ أن وضعت قدميها في هذا البيت . أم أن الأمر مثلما كان يتخيل ريغوبيرتو مؤججاً الرغبة من اندفاعاته الليلية بالقول إن ألفونسيتو قد بدأ يتفتح على الحياة الجنسية وإن الظروف قد أوكلت إليها دور الملهمة ؟ «يا للهراء يا ريغوبيرتو . إنه ما يزال صغيراً ، فقد أنجز للتو مناولته الأولى . يا للسخافات التي تخطر لك .» .

ولكن ، على الرغم من أنها لم تكن توافق بصوت عالٍ على مثل تلك الأمور ، وخصوصاً أمام زوجها ، حين يكونان وحدهما ، مثلما هما الآن ، إلا

أن دونيا لوكريثيا كانت تتساءل عما إذا كان الطفل يكتشف فعلاً الشهوة ، هذا الشعِر المتولد من الجسد ، مستفيداً منها كمحرض . فسلوك ألفونسيتو يشوشها ، فهو يبدو بريئاً جداً وغامضاً جداً في الوقت نفسه . وتذكرت عندئذ ـ وكانت تلك حادثة من طفولتها لا يمكن نسيانها مطلقاً ـ ذلك الرسم العارض الذي رأت قائمتا نورس تخطانه يومذاك على رمال نادي ريفاتاس ؛ فاقتربت لتتأمله ، منتظرة أن ترى شكلاً تجريدياً ، متاهة من الخطوط المستقيمة والمنحنية ، ولكن ما رأته كان أشبه بعضو ذكري أحدب! هل كان فونتشيتو يعي أنه حين يلقي بذراعيه حول عنقها مثلما يفعل ، ويقبلها بتلك الطريقة المتمهلة ، باحثاً عن شفتيها ، يتجاوز الحدود المسموح بها ؟ من المستحيل معرفة ذلك . فنظرة الطفل كانت شديدة الصراحة ، شديدة العذوبة ، بحيث بدا من المستحيل لدونيا لوكريثيا أنه يمكن لذلك الرأس الأشقر الجميل الذي يتخذ وضعية راع صغير في مذود الميلاد في مدرسة سانتا ماريا أن يتضمن أفكاراً دنسة ، وعرة .

« أفكار دنسة » همست وفمها على الوسادة ، « وعرة . ها ها ها! » كانت تحس بأنها رائقة المزاج وأن دفئاً لذيذاً يسري في أوردتها ، كما لو أن ذلك هو لعب بالنار ، فتدفق العواطف ذاك تمليه دون شك غريزة غامضة ، انتحاء لا شعوري . ولكنه حتى في هذه الحالة يبقى ألعاباً خطرة . أليس كذلك يا لوكريثيا ؟ لأنها عندما تراه ، صغيراً ، جاثياً على الأرض ، يتأملها وكأن خالته قد هبطت لتوها من الجنة ، أو عندما تلتحم ذراعاه الصغيرتان وجسده الغض بها وتلتصق شفتاه اللتان لا تكادان تظهران لشدة نحولهما بخديها وتلمسان شفتيها ـ وهي لم تسمح أبداً ببقائهما لأكثر من ثانية واحدة ـ ، لا تستطيع دونيا لوكريثيا أن تحول دون أن تباغتها أحياناً ضربة تهيج ، نفحة شهوة . « أنتِ من تملك أفكاراً دنسة ووعرة يا لوكريثيا » ،

دمدمت بذلك وهي تلتصق بشدة بالوسادة ، دون أن تفتح عينيها . أتراها تتحول يوماً إلى عجوز ماجنة مثل بعض زميلاتها في لعبة البريدج ؟ أيكون هذا هو شيطان الظهيرة ؟ اهدئي ، تذكري أنك ستكونين أرملة ليومين ـ فقد سافر ريغوبيرتو في رحلة عمل ، من أجل شؤون تتعلق بالتأمين ، ولن يرجع حتى يوم الأحد ـ ثم ، يكفي تكاسلاً في الفراش . إلى النهوض أيتها الكسول! بذلت جهداً لتنفض عنها الوسن اللذيذ ، تناولت الانترفون وأمرت خوستينيانا بأن تأتيها بالفطور .

دخلت الفتاة بعد خمس دقائق حاملة الصينية ، والرسائل والصحف . فتحت الستائر فداهم الحجرة ضوء أيلول ليما الرطب ، الكئيب ، الرمادي . وفكرت دونيا لوكريثيا : « كم هو قبيح الشتاء » . وحلمت بشمس الصيف ، بشواطئ باراكاس الرملية الساخنة وبمداعبة البحر المالحة على بشرتها . مازال هناك وقت طويل! وضعت لها خوستينيانا الصينية فوق ركبتيها ورتبت لها الوسائد لتسند ظهرها إليها . لقد كانت سمراء ممشوقة القامة ، لها شعر أجعد ، وعينان لعوبان وصوت مترنم .

ـ هناك شيء لا أعرف إذا ما كان علي أن أخبرك به يا سيدتي ـ تمتمت وهي تومئ بحركة تراجيكوميدية ، بينما هي تقدم لها الروب وتضع الخف بجانب السرير .

فردت دونيا لوكريثيا وهي تقضم الخبز المحمص.وتتناول رشفة من الشاي :

ـ عليك الآن أن تخبريني بما لديك ، لأنك فتحت شهيتي . ما الذي جرى ؟

ـ إنني أخجل من قول ذلك يا سيدتي .

تأملتها دونيا لوكريثيا مستمتعة . إنها شابة ، تكشف تكورات

جسدها تحت مريلة زيها الزرقاء عن طزاجة ومرونة . كيف يبدو وجهها عندما يمارس زوجها الحب معها ؟ لقد كانت متزوجة من بواب في أحد المطاعم ، زنجي طويل ومربوع القامة مثل رياضي يأتي ليوصلها صباح كل يوم . وكانت دونيا لوكريثيا قد نصحتها بألا تُعقّد حياتها بإنجاب الأطفال وهي ما تزال شابة وأخذتها بنفسها إلى طبيبها ليصف لها حبوب منع الحمل .

ـ أهو شجار آخر بين الطاهية وساتورنينو ؟

ـ بل هو أمر متعلق بالطفل الفونسو ـ قالت خوستينيانا ذلك بصوت خافت وكأنه يمكن للصغير أن يسمعها وهو في مدرسته البعيدة ، وحاولت أن تبدو مضطربة أكثر مما هي عليه عندما أضافت : ـ لقد ضبطته ليلاً... ولكن ، أرجوك ألا تخبريه يا سيدتي . لأن فونتشيتو سيقتلني إذا عرف بأنني أخبرتك .

كانت دونيا لوكريثيا تتسلى بهذا التكلف وهذه المبالغة التي تزين بها خوستينيانا كل ما تقوله

ـ أين ضبطته ؟ وأي شيء كان يفعل ؟

ـ كان يتلصص عليك يا سيدتي .

ونبه إحساس غريزي دونيا لوكريثيا إلى ما ستسمعه ، فتأهبت . كانت خوستينيانا تشير إلى سقف الحمام ، وقد بدت مضطربة الآن حقاً .

ـ كان يمكن له أن يسقط إلى الحديقة ويقتل نفسه ـ همست وهي تحرك عينيها في محجريهما ـ . ولهذا رأيت أن أخبرك يا سيدتي . عندما أنبته قال لي إنها ليست المرة الأولى . وإنه قد صعد إلى السقف عدة مرات ليتلصص عليكِ

ـ ما هذا الكلام ؟

ـ ما سمعتِه ـ رد الطفل بتحد ، وبما يشبه البطولة ـ . واعلمي أنني سأواصل عمل ذلك حتى لو انزلقت وقتلت نفسي .

ـ ولكنك جننت يا فونتشيتو . هذا سلوك قبيح جداً ، هذا عمل معيب . ما الذي سيقوله دون ريغوبيرتو إذا علم أنك تتجسس على خالتك وهي تستحم . سيغضب كثيراً ، ويضربك . ثم إنك قد تقتل نفسك ، انظر كم هو مرتفع .

ـ لا يهمني ـ رد عليها الطفل بوميض حاسم في عينيه . ولكن ذلك الوميض انطفأ في الحال ، وهز الطفل كتفيه ، وأضاف بتذلل شديد : ـ حتى لو ضربني أبي يا خوستيتا . هل ستشين بي إذن ؟

ـ لن أخبره بأي شيء إذا ما عاهدتني بألا تصعد إلى هناك أبداً .

فهتف الطفل محزوناً :

ـ لا يمكنني أن أعاهدك بشيء من هذا . فأنا لا أعد بما لا يمكنني تنفيذه .

ـ ألستِ تخترعين كل هذه القصة بمخيلتك التروبيكالية ؟ ـ قالت لها دونيا لوكريشيا متلعثمة وهي تفكر : هل يجب عليها أن تضحك أم تغضب ؟

ـ لقد ترددتُ كثيراً قبل أن أحسم أمري وأخبرك يا سيدتي . لأن فونتشيتو طيب جداً ، وأنا أحبه كثيراً . ولكن يمكن له أن يقتل نفسه بالصعود إلى هذا السطح ، أقسم لكِ .

حاولت دونيا لوكريشيا دون جدوى أن تتخيله هناك في الأعلى ، قابعاً يترصدها مثل وحش .

ـ ولكن ، ولكن... لا أستطيع أن أصدق ذلك . فهو جدي ومؤدب جداً . لا أستطيع تصوره يفعل مثل هذه الفعلة .

فتنهدت الفتاة وهي تغطي فمها وتبتسم :

ـ لقد أحبك فونتشيتو يا سيدتي . ولا تقولي إنك لم تلاحظي ذلك ، فأنا لن أصدق .

ـ يا للبشاعات التي تتلفظين بها يا خوستينيانا .

ـ وهل هناك سن محددة للحب يا سيدتي ؟ البعض يبدؤون الحب وهم في عمر فونتشيتو . وهو فوق ذلك شديد اليقظة . لو أنك سمعت ما قاله لي لبقيت مفتوحة الفم من الدهشة . مثلما أصابني أنا .

ـ وما الذي ستخترعينه الآن أيتها السمجة .

ـ ما سمعته يا خوستيتا . فعندما تخلع الروب وتغطس في الحوض المملوء بالرغوة ، لا أستطيع أن أصف لك ما أشعر به . إنها جميلة ، جميلة... فدموعي تطفر من عيني ، مثلما يصيبني عندما أشارك في تناول خبز القربان . أقول لك إنني أحس وكأنني أشاهد فيلماً . يبدو لي شيئاً لا أستطيع وصفه لك . وربما هذا هو ما يجعلني أبكي ، أليس كذلك ؟

اختارت دونيا لوكريثيا أن تنفجر بالضحك . فأحست الخادمة بالثقة وابتسمت أيضاً مظهرة ملامح التواطؤ .

ـ لا أصدق إلا عُشر ما ترويته لي ـ قالت لها أخيراً وهي تنهض ـ . ولكن ، حتى في هذه الحالة ، لا بد من عمل شيء لهذا الطفل . يجب وقف هذه الألعاب بالحسنى وبأسرع ما يمكن .

فتوسلت إليها خوستينيانا مذعورة :

ـ لا تخبري السيد . فقد يغضب كثيراً وربما ضربك . ففونتشيتو لا يدرك بأنه يقوم بعمل سيئ . صدقيني أنه لا يدرك . إنه مثل ملاك صغير ، لا يميز بين الجيد والخبيث .

فوافقت دونيا لوكريثيا مفكرة بصوت عالٍ :

ـ لن أخبر ريغوبيرتو... لن أفعل ذلك بالطبع . ولكن لا بد من وضع حد لهذه الحماقة . لست أدري كيف ، ولكن يجب عمل ذلك فوراً .

كانت تشعر بالخوف وعدم الراحة وبالغضب من الطفل ، ومن الخادمة ، ومن نفسها . ما الذي عليها عمله ؟ أتكلم فونتشيتو وتؤنبه ؟ أتهدده بأنها ستخبر ريغوبيرتو بكل شيء ؟ وماذا سيكون رد فعله ؟ هل سيشعر بأنه قد جُرح وتعرض للخيانة ؟ وهل سيتحول فجأة حبه لها إلى كراهية ؟

بينما هي تفرك جسمها بالصابون ، داعبت نهديها الصلبين الكبيرين بحلمتيهما المنتصبتين ، وخصرها الذي ما زال نحيلاً تبرز منه ، مثل نصفي ثمرة ، انحناءات الوركين ، والفخذين ، والإليتين ، والإبطين منزوعي الشعر والعنق الطويل البض المزين بشامة وحيدة . ورتلت مثلما تفعل وهي تستحم كل صباح : «لن أهرم أبداً . حتى لو اضطررت إلى أن أبيع روحي أو أي شيء آخر . لن أكون قبيحة أو تعيسة أبداً . سأموت جميلة وسعيدة .» كان دون ريغوبيرتو قد أقنعها بأن قول هذه العبارات وتكرارها والإيمان بها يحولها إلى حقيقة . «يا للسحر اللطيف يا حبي .» وابتسمت لوكريثيا . فقد يكون زوجها غريب الأطوار جداً ، ولكن المرأة لا تشعر في الحقيقة بالملل مع رجل مثله .

طوال ذلك النهار ، وبينما هي تصدر التعليمات للخدم ، وتذهب لشراء لوازم البيت ، وتزور إحدى صديقاتها ، وتتناول الغداء ، وتجري وتتلقى اتصالات هاتفية ، كانت تتساءل عما ستفعله مع الطفل . إذا ما وشت به إلى ريغوبيرتو ، فسوف تحوله إلى عدو لها ، وعندئذ ستتحول نبوءة الجحيم المنزلي القديمة إلى واقع . ربما كان أكثر التصرفات رصانة هو نسيان ما كشفت عنه خوستينيانا ، وتبني سلوك مختلف ، والبدء بسحب الأرض تدريجياً من تحت هذه التخيلات التي صاغها الطفل معها ، والتي لا يعي

فحواها إلا بصورة تقريبية . أجل ، هذا التصرف هو عين العقل : التزام الصمت ، وإبعاده عنها شيئاً فشيئاً .

عندما دنا منها ألفونسيتو في المساء ، لدى عودته من المدرسة ، ليقبلها ، أبعدت خدها عنه بسرعة واستغرقت في المجلة التي كانت تتصفحها دون أن تسأله عن دروسه أو إذا ما كانت لديه واجبات مدرسية للغد . ولمحت بطرف عينها أن وجهه الصغير يتأثر إلى حد التحول إلى تكشيرة بكاء . ولكنها لم تتأثر وتركته يتناول طعامه في تلك الليلة وحيداً دون أن تنزل لمرافقته مثلما تفعل في مرات أخرى (وكانت هي لا تتناول وجبة العشاء إلا نادراً) . وبعد قليل من ذلك اتصل بها ريغوبيرتو من مدينة تروخييو . كل أعماله في مهمته كانت على ما يرام وهو مشتاق إليها جداً . وهذه الليلة سيشتاق إليها أكثر في غرفته الكئيبة في فندق السياح . أليس هناك من جديد في البيت ؟ لا ، لا شيء . انتبهي لنفسك جيداً يا حبي . وبعد ذلك استمعت دونيا لوكريثيا إلى قليل من الموسيقى ، وحيدة في غرفتها ، وعندما جاء الطفل ليتمنى لها ليلة سعيدة ، ردت عليه ببرود . وبعد قليل طلبت من خوستينيانا أن تعدّ لها حمام الرغوة الذي تستحم فيه دوماً قبل النوم .

وبينما كانت الفتاة تملأ حوض الحمام بالماء ، وكانت هي تتعرى ، عاودها مجدداً الضيق الذي لاحقها طوال النهار ، وكان قد ازداد أكثر . هل أحسنت صنعاً بمعاملتها فونتشيتو بهذه الطريقة ؟ وكانت على الرغم منها ، تشعر بالأسى وهي تتذكر ملامح وجهه المخذول والمباغَت . ولكن ، ألم تكن هذه هي الطريقة الوحيدة لوضع حد لولدنة يمكن لها أن تصبح خطرة ؟

كانت شبه غافية في حوض الحمام ، وكان الماء يصل حتى عنقها ، وهي تحرك بين الفينة والفينة بيدها أو بقدمها فقاعات الصابون ، عندما

طرقت خوستينيانا الباب : أيمكنني الدخول يا سيدتي ؟ رأتها تقترب حاملة المنشفة في يد وروب الحمام في اليد الأخرى . وكانت تبدو على وجهها إمارات ذعر شديد . فعرفت على الفور ما الذي ستهمس لها به الفتاة : «فونتشيتو موجود في الأعلى يا سيدتي» . فأومأت بحركة مثقلة وأمرت خوستينيانا بالخروج .

بقيت في الماء دون حراك لوقت طويل ، متجنبة النظر إلى السقف . هل يتوجب عليها عمل ذلك ؟ هل تشير إليه بإصبعها ؟ أتصرخ ، أتشتمه ؟ استبَقت الجلبة التي قد تحدث وراء القبة الزجاجية القاتمة الموجودة فوق رأسها ؛ تخيلت الهيئة الصغيرة المقرفصة ، ورعبه ، وخجله . سمعتْ صرخته المشوشة ، رأته يندفع راكضاً . ينزلق ، يسقط إلى الحديقة بدوي نيزك . ووصلت إلى مسمعيها ضجة ارتطام الجسد الصغير القوية بالدرابزين ، وسحقه سياج شجيرات الكروتو ، وتشابكه ما بين أغصان شجرة الفلوريبونديو . قالت لنفسها وهي تضغط على أسنانها : «ابذلي جهدك ، واكبحي نفسك . تجنبي حدوث فضيحة . وتجنبي قبل كل شيء حدوث أمر قد ينتهي بمأساة» .

لقد جعلها الغضب ترتجف من قدميها حتى رأسها ، وكانت أسنانها تصطك وكأنها تشعر ببرد شديد . نهضت فجأة . ودون أن تستر جسدها بالمنشفة ، ودون أن تنكمش على نفسها بحيث لا ترى العينان الصغيرتان غير المرئيتين سوى مشهد ناقص وعابر لجسدها . لا ، بل على العكس . نهضت منتصبة ، منفتحة ، وقبل أن تخرج من حوض الاستحمام ، تمطت مظهرة نفسها بتمهل وفحش بينما هي تنزع واقية الشعر البلاستيكية وتهز شعرها بقوة . وحين خرجت من الحوض ، وبدلاً من أن ترتدي الروب فوراً ، بقيت عارية ، جسدها يتلألأ بقطرات الماء ، مشدوداً ، جريئاً ، غاضباً .

جففت جسمها ببطء شديد ، عضواً فعضواً ، مارة بالمنشفة على بشرتها مرة بعد أخرى ، منتصبة ، منحنية ، متوقفة للحظات وكأنها ساهية بفكرة مفاجئة في وضع فاحش مستسلم أو متأملة نفسها بتمعن في المرآة . وبالإسهاب المهووس نفسه دلكت جسدها بعد ذلك بمراهم منعشة . وبينما هي تتألق بهذه الطريقة أمام المراقب غير المرئي ، كان قلبها ينبض بالغضب . ما الذي تفعلينه يا لوكريشيا ؟ أي تغنج هذا يا لوكريشيا ؟ ولكنها واصلت عرض نفسها مثلما لم تفعل ذلك لأحد من قبل ، حتى ولا لدون ريغوبيرتو نفسه ، متنقلة من مكان إلى آخر في الحمام ، عارية ، بينما هي تسرح شعرها بالفرشاة ، وتنظف أسنانها ، وترش جسدها ببخاخ العطر . وبينما هي تقوم ببطولة هذا الاستعراض المرتجل كانت تحس بأن ما تفعله هو طريقة فطنة أيضاً للتنكيل بالماجن المبكر القابع في ظلمة السطح ، وأن الصور الحميمة ستمزق إلى الأبد كل تلك البراءة التي تستر وقاحاته .

عندما دست نفسها في السرير ، كانت ما تزال ترتجف . ولم تستطع النوم لوقت طويل ، متشوقة لريغوبيرتو . كانت تشعر بالاستياء مما فعلته ، وكرهت الطفل بكل قواها ، وكانت تحاول جاهدة ألا تحزر ما الذي تعنيه نوبات السخونة تلك التي تكهرب حلمتي نهديها بين فينة وأخرى . ما الذي أصابك يا امرأة ؟ لم تكن تعرف . أهي سن الأربعين ؟ أم أنه أثر تخيلات وشذوذات زوجها الليلية ؟ لا ، فالذنب كله يقع على ألفونسيتو . وفكرت بتشوش : «هذا الطفل يفسدني» .

وعندما استطاعت النوم أخيراً ، حلمتْ حلماً شهوانياً يبدو وكأنه يبعث الحياة في إحدى لوحات مجموعة دون ريغوبيرتو السرية التي يتأملانها معاً في الليل بحثاً عن مصدر إلهام لحبهما .

« ٥ »

ديانا بعد حمامها [١]

هذه التي إلى اليسار هي أنا ، ديانا لوكرثيا . أجل ، أنا ربة السنديان والغابات ، ربة الخصوبة والإنجاب ، ربة الصيد . الإغريق كانوا يسمونني ارتيميسا . وأنا متساوية مع القمر ، وأبولو هو أخي . وبين من يعبدونني تكثر النساء والعوام . هناك معابد منتشرة لتأليهي في كل غابات الإمبراطورية . والمنحنية إلى جانبي ، تنظر إلى قدمي ، هي خوستينيانا ، المفضلة لدي . لقد انتهينا من الاستحمام للتو وسوف نمارس الحب .

الأرانب البرية والزرازير وطيور التدرج اصطدتها فجر هذا اليوم ، بالسهام التي أعيدت إلى كنانتها بعد أن انتزعتها خوستينيانا من أجساد الطرائد ونظفتها . كلاب الصيد هي للزينة فقط ؛ فنادراً ما أستخدمها لدى خروجي إلى الصيد . ولم أستخدمها مطلقاً على أي حال من أجل طرائد حساسة كهذه التي اصطدتها اليوم ، لأن أنيابها تتلفها فلا تعود صالحة للأكل . هذه الليلة سنأكل هذه الحيوانات ذات اللحم الطري واللذيذ ، متبلاً ببهارات غريبة وسنشرب من نبيذ كابوا إلى أن نخر منهوكتين . أنا أعرف

---

(١) راجع اللوحة رقم (٢) .

كيف استمتع . وهذه كفاءة رحت أطورها دون راحة على امتداد الزمن والتاريخ ، وأؤكد دون تفاخر بأنني قد توصلت في هذا المجال إلى الحكمة . أعني : فن مزج نيكتار لذة كل الثمار ـ حتى المتعفنة منها ـ في الحياة .

الشخصية الرئيسية ليس موجوداً في اللوحة . أو أنه بكلمة أدق ، لا يظهر فيها . إنه في الخلفية ، متخفٍ في الدغل ، يتلصص علينا . إنه هناك ، بعينيه الجميلتين اللتين بلون الفجر الجنوبي المفتوحتين على اتساعهما ووجهه المدور الساخن باللهفة ، إنه هناك ، يجثو في غيبوبة ليعبدني . بخصل شعره الأشقر المتشابك مع الغصون الكثيفة وعضوه الصغير ذي البشرة الشاحبة المنتصب مثل بيرق ، يرتشفنا ويلتهمنا بمخيلته... مخيلة الطفل النقي ، إنه هناك . ومعرفتنا بوجوده تفرحنا وتضفي مزيداً من الخبث على ألعابنا . إنه ليس إلهاً ولا حيواناً ، بل هو من جنس البشر . يرعى الماعز ويعزف المزمار . واسمه فونشين .

لقد اكتشفته خوستينيانا في يوم عيدس آب ، حين كنتُ أقتفي أثر غزال في الغابة . وكان الراعي الصغير يتبعني مبهوراً ، متعثراً ، دون أن يرفع عينيه عني لحظة واحدة . وتقول مفضلتي إنه حين رآني منتصبة ـ وكان شعاع من الشمس يشعل شعري ويهيج حدقتي عيني ، بينما كل عضلات جسدي مشدودة استعداداً لرمي السهم ـ انفجر الصغير بالبكاء . فاقتربت خوستينيانا منه لتواسيه ، وانتبهتْ عندئذ إلى أن الطفل يبكي من السعادة .

«لا أدري ما الذي أصابني» ، اعترف لها بذلك والدموع تسيل على خديه ، وأضاف : «ولكن كلما ظهرت السيدة في الغابة تتحول أوراق الشجر إلى نجوم ساطعة وتبدأ الأزهار بالغناء . فتنسل إلى داخلي روح ملتهبة تهيج دمائي . أراها فأحس وأنا ساكن على الأرض بأنني أتحول إلى طائر وأنطلق محلقاً .

وفلسفت خوستينيانا الأمر بعد أن روت لي الواقعة : «هيئة جسدك أوحت باكراً بلغة الحب لسنوات عمره القليلة . لقد فتنه جمالك مثلما تفتن ذات الأجراس عصفور الكوليبري . أشفقي عليه يا ديانا لوكريثيا . لماذا لا نلعب قليلاً مع الطفل الراعي ؟ سنمتعه ونمتع أنفسنا كذلك .

وهذا ما حدث . فخوستينيانا المحبة للهو بالفطرة ، مثلي ، وربما أكثر مني ، لا تخطئ أبداً في الشؤون المتعلقة باللذة . وهذا هو أكثر ما يعجبني فيها ، أكثر من وركيها الوارفين أو من زغب عانتها الحريري ذي الطعم اللذيذ في المداعبة : إنها مخيلتها السريعة وغريزتها الصائبة في التعرف ، وسط صخب هذا العالم ، على منابع اللهو واللذة .

منذ ذلك الحين صرنا نلعب معه ، ومع أن وقتاً طويلاً قد انقضى ، إلا أن اللعب مُبْهج لا يسبب لنا أي ملل . ففي كل يوم يسلينا أكثر من سابقه ، مضفياً الجدة والطرافة على الحياة .

إن فونشين ، إضافة إلى مفاتنه الجسدية ، كإله رجولي صغير ، يجمع كذلك روح الخجل والحياء . فالمحاولتان أو الثلاث التي قمت بها للاقتراب منه والتحدث إليه لم تثمر نفعاً . فهو يمتقع ، وينطلق راكضاً مثل غزال نفور ويختفي بين الأغصان كما في أعمال السحر الأسود . لقد همس إلى خوستينيانا بأن مجرد التفكير ، ليس بلمسي ، وإنما بالاقتراب مني ، أو بأنني أنظر إلى عينيه أو أتحدث إليه يُفقده صوابه ويقضي عليه . وقال لها : «أعرف بأن جمالها سيحرقني إذا ما اقتربت منها مثلما تحرق شمس ليبية فراشة حائمة .

ولهذا السبب نمارس ألعابنا خفية . في كل مرة لعبة مختلفة ، ألعابُ تَصنُّع تشبه تلك المشاهد المسرحية التي يختلط فيها الآلهة والبشر ليتألموا ويتسلوا ، والتي يحبها كثيراً أبناء بلاد الإغريق العاطفيون . فخوستينيانا

تتظاهر بأنها شريكته المتواطئة معه وليست حليفتي ـ والحقيقة أن تلك الخبيثة متواطئة مع كلينا ، ومع نفسها بصورة خاصة ـ ، فتضع الراعي الصغير بين صخور مجاورة للمغارة التي أقضي فيها الليل . وعندئذ تعريني على ضوء الموقد ذي اللهب الأحمر ، وتطلي جسدي بعسل نحل صقلية العذب . إنها وصفة إسبارطية للحفاظ على الجسد صافياً ولامعاً ، فضلاً عن أنها وصفة مهيجة . وأغمض أنا عيني بينما هي قابعة فوقي ، تدلك أعضائي وتحركها وتعرضها على فضول مريدي العفيف . وأغور في أثناء ذلك في نفق الحس وأرتعش في تشنجات لذة قصيرة وأنا أتخيل فونشين . بل أكثر من ذلك : فأنا أراه ، أشمه ، أداعبه ، أشده وأخبئه في داخلي ، دون أن أكون بحاجة إلى لمسه . ويضاعف تهيجي علمي بأنني بينما أنا أستمتع تحت يديّ مفضلتي المجتهدتين ، يستمتع هو أيضاً معي ، على إيقاع متعتي . جسده الصغير البريء ، المتلألئ بالعرق وهو يتأملني وينتشي برؤيتي ، يضيف لمسة حنان تلون لذتي وتبعث فيها الحلاوة .

وهكذا رآني الراعي الصغير بمساعدة خوستينيانا وهو مختبئ ما بين تشابكات الغابة ، وأنا أنام وأستيقظ ، ورآني وأنا أرمي السهم والنَبْلة ، وأنا ألبس وأتعرى . رآني أقرفص على حجرين لأتبول بولي الأشقر في جدول ماء رائق شفاف يسارع هو ، بعيداً عني في اسفل المجرى ، إلى الشرب منه . رآني أقطع رؤوس الإوز ، وأصفي دم الحمائم لأقدمه للآلهة وأتقصى في أحشائها مجاهيل المستقبل . رآني أداعب جسدي وأنتشي بنفسي وأداعب مفضلتي وأبعث فيها النشوة ، ورآنا ، أنا وخوستينيانا ، نغطس معاً في النهر ، وتشرب كل واحدة منا ماء الشلال البلوري من فم الأخرى ، مستمتعتين بمذاق لعابينا ورحيقينا وعرقينا . ليس هناك ممارسة أو عمل ، ولا مجون أو طقس من طقوس الجسد أو الروح إلا وعرضناه عليه ، عليه هو

سيد الامتياز في الإطلاع على لقاءاتنا الحميمة من مخابئه المتنقلة . إنه مهرجنا ، ولكنه سيدنا أيضاً . يخدمنا ونخدمه . ولقد استمتعنا مرات لا حصر لها دون أن يلمس أحدنا الآخر أو يتبادل معه كلمة واحدة ، وليس من الظلم القول إنه على الرغم من الهوة الشاسعة التي تفصل بين طبيعتينا وسنينا ، إلا أننا ، أنا وهو ، أشد اتحاداً من أي عاشقين متيمين .

الآن ، في هذه اللحظة بالذات ، سنمثل أنا وخوستينيانا من أجله ، وسيبقى فونشين ببساطة هناك في الخلف ، ما بين السور الحجري والدغل ، وسيمثل كذلك من أجلنا .

وباختصار ، سوف تدب الحياة والحركة في هذا السكون الأبدي ليصبح زماناً وتاريخاً . ستنبح كلاب الصيد ، وستغرد الغابة ، وستجري مياه النهر مغنية ما بين الحصى والقصب ، وستسافر الغيوم المنفوشة نحو الشرق ، مدفوعة بالرياح اللعوب نفسها التي تهز تجعيدات شعر مفضلتي السعيدة . إنها ستتحرك الآن ، ستنحني بفمها ذي الشفتين الورديتين لتقبل قدمي وتمص كل إصبع من أصابعي مثلما تمص الليمون في أمسيات الصيف الحارة . عما قريب سنتشابك معاً ، متداعبتين على حرير الشرشف الأزرق ، غارقتين في النشوة التي تنبثق منها الحياة . وفيما حولنا ستحوم الكلاب مطلقة الأبخرة من أشداقها المتلهفة ، وربما ستلحسنا متهيجة . والغابة ستسمعنا نتنهد ، نغيب عن الوعي ، ثم نصرخ فجأة مجروحتين جراحاً مميتة . وبعد لحظة من ذلك سيسمعنا نضحك ونمزح . وسيرانا نستغرق في نوم هادئ دون أن تنفصل إحدانا عن الأخرى .

ومن المحتمل عندئذ ، حين يرانا وقد صرنا أسيرتي الإله هبنوس[٢] ،

---

(٢) هببنوس Hipnos الإله الدي يجسد النوم عند الاغريق وهو شقيق ثاناتوس ، إله تشخيص الموت

سيتخذ أقصى الاحتياطات لكي لا يوقظنا بأدنى حفيف من خطواته ، وسيغادر شاهد تغنجنا مخبأه ويأتي ليتأملنا من حافة الشرشف الأزرق .

سيكون هناك ، وسنكون نحن أيضاً ، جامدين مرة أخرى ، في لحظة أبدية أخرى . وستكون جبهة فونشين شاحبة ، وخداه متوردين ، وعيناه مفتوحتين بذهول وامتنان ، وخيط لعاب رقيق يسيل من فمه الطري . أما نحن المتشابكتين والتامتين ، فسنتنفس بإيقاع واحد ، بأقصى تعبير من يعرفن كيف يكنّ سعيدات . سنكون هناك نحن الثلاثة ، ساكنين ، صابرين ، بانتظار فنان المستقبل الذي ستهيجه الشهوة ، فيحبسنا في حلمه ، ثم ينقلنا إلى لوحة القماش بريشته معتقداً أنه يبدعنا .

« ٦ »

اغتسالات دون ريغوبيرتو

دخل دون ريغوبيرتو إلى الحمام ، أحكم القفل وتنهد . وعلى الفور هيمن عليه إحساسٌ من الرضا والامتنان ، من الراحة والرجاء : ففي نصف ساعة التوحد هذه سيكون سعيداً . وقد كان يشعر بذلك كل ليلة ، بصورة أكبر أحياناً ، وأقل في أحيان أخرى ، ولكن الطقس الغيور الذي راح يتقنه على امتداد السنوات ، مثل فنان يهذب ويشذب عمله المتميز ، لم يتوقف عن بعث ذلك التأثير الاعجازي فيه : إراحته ، مصالحته مع أمثاله ، إعادة الشباب إليه ، وبعث الحماسة فيه . فكل مرة يخرج من الحمام وهو يشعر ، على الرغم من كل شيء ، بأن الحياة تستحق أن تعاش . ولهذا ، لم يتوقف عن الاحتفاء بذلك أبداً ، منذ أن ـ منذ كم من الآن ؟ ـ منذ أن خطر له أن يحوّل ما هو أمر عادي بالنسبة إلى غيره من الفانين ، يمارسونه بروتينية آليه غير واعية ـ تنظيف الأسنان بالفرشاة ، المضمضة ، إلى آخره ـ يحوله إلى عمل مهذب متقن ، يجعل منه كائناً كاملاً ، وإن كان ذلك يستمر لفترة قصيرة عابرة فقط .

لقد كان في شبابه عضواً متحمساً في منظمة العمل الكاثوليكي وكان يحلم بتغيير العالم . وسرعان ما أدرك أن تحقيق ذلك هو حلم مستحيل

ومحكوم عليه بالإخفاق ، مثلما هي كل المثل العليا الجماعية . وقادته روحه العملية إلى عدم إضاعة الوقت في خوض معارك سيخسرها عاجلاً أو آجلاً . وحدس عندئذ أن فكرة الكمال قد تكون ممكنة التحقيق بالنسبة إلى الفرد المعزول ، بحصرها في مجال محدد في المكان (النظافة أو الطهارة الجسدية مثلاً ، أو الممارسة الايروتيكية) وفي الزمان (الاغتسالات والتسليات الليلية قبل النوم) .

خلع الروب وعلقه وراء الباب ، ومضى وهو عارٍ إلا من الخفّ في قدميه ، ليجلس على مقعد المرحاض الذي يفصله عن بقية الحمام برافان حاجز مطلي باللّك ومزين بأشكال راقصة ذات لون سماوي . لقد كانت معدته ساعة سويسرية : منضبطة ودقيقة دوماً على الإفراغ الكامل ودون جهد في هذا الوقت بالضبط ، على التخلص السعيد من بوالص ومن معوقات اليوم . فهو لم يعد يعرف الإمساكات الخانقة ولا الإسهالات المثبطة منذ أن قرر ، في أكثر قرارات حياته سرية ـ حتى أن لوكريثيا نفسها لن تتوصل إلى معرفة هذا القرار بالكامل ـ ، أن يكون كاملاً في جزء قصير من اليوم .

أغمض دون ريغوبيرتو عينيه وبذل جهداً خفيفاً . لم يكن بحاجة إلى المزيد : أحس على الفور بالدغدغة المريحة في المستقيم ، والشعور بأن هناك في الداخل ، في تجاويف أسفل بطنه ، شيئاً مذعناً يستعد للمغادرة ويتوجه نحو بوابة الخروج تلك التي بدأت تتسع لتُسهل مروره . وبدأت فتحة الشرج من جهتها تتمدد ، مسبقاً ، متهيئة لإنجاز طرد المطرود ، لكي تنغلق بعد ذلك وتتغضن بآلاف تجعداتها الصغيرة ، وكأنها تقول ساخرة : «ها قد خرجت أيها القذر ، ولن تعود أبداً» .

ابتسم دون ريغوبيرتو بسعادة ، وفكر : «التغوط ، التبرز ، الخروج ، أهي مرادفات للسعادة ؟» . أجل ، ولم لا . بشرط عمل ذلك ببطء وتركيز ،

مستمتعاً بالمهمة ، دون أدنى تسرع ، متباطئاً ، وطابعاً عضلات المعي برعشة رقيقة . لا حاجة لبذل جهد في الدفع ، وإنما الاكتفاء بالتوجيه ، والمرافقة ، والمراقبة اللطيفة لانزلاق تلك القطع نحو بوابة الخروج . وعاد دون ريغوبيرتو إلى التنهد ، الحواس الخمس مستغرقة فيما يحدث داخل جسده . يمكنه تقريباً أن يرى المشهد : تلك التقلصات والتمددات ، وهذه العصارات والكتل وهي تعمل ، كل ذلك في ظلمة الجسد الدافئة وبصمت تقطعه بين حين وآخر غرغرات صماء أو ريح ضرطة مرحة . وسمع أخيراً الارتطامة التي غطست ـ هل طفت ، أم غرقت ؟ ـ بها الكتلة الأولى الخارجة من أحشائه في ماء قاع تجويف المرحاض . وستسقط ثلاث أو أربع قطع أخرى . رقمه الأولمبي هو ثمان قطع ، تكون نتيجة غداء مفرط ، فيه خليط قاتل من الدهون والمعجنات والنشويات مضمخة بالنبيذ والكحول . إنه يُخرج عادة خمس قطع ؛ ومع خروج القطعة الخامسة ، بعد ثوان من الانتظار لمنح العضلات ، والأمعاء ، والشرج ، والمستقيم الوقت اللازم لاستعادة وضعها الطبيعي ، يداهمه هذا الإحساس ببهجة إنجاز الواجب وتحقيق الهدف ، وهو إحساس التطهر الروحي الذي كان يستولي عليه في طفولته ، في مدرسة لاريكوليتا ، بعد الاعتراف بخطاياه وإنجازه التكفير الذي يفرضه عليه كاهن الاعتراف .

« ولكن تنظيف البطن هو أقل التباساً من تنظيف الروح » ، فكر . إن معدته نظيفة الآن ، لا شك في ذلك . باعد ما بين ساقيه ، وأحنى رأسه ونظر : هذه الأشكال الأسطوانية والشهباء ، الغاطسة في تجويف مقعد المرحاض البورسلين الأخضر ، تؤكد ذلك . فأي معترف يمكنه أن يرى وأن يلمس (إذا رغب في ذلك) النجاسات النتنة التي يُخرجها الندم والاعتراف والتكفير ، ورحمة الرب من الروح ؟ عندما كان مؤمناً ممارساً ـ وهو الآن

الأمر الأول فقط ـ لم تكن تفارقه الشكوك مطلقاً ، على الرغم من الاعتراف ، وبغض النظر عن إسهابه وطوله ، بأن شيئاً من الدنس يبقى عالقاً بجدران الروح ، بعض النتف المتمردة والعنيدة التي لا يتمكن التكفير من إزالتها .

وفيما عدا ذلك ، كان هذا الإحساس يراوده أحياناً ، وإن بصورة متناقصة ودون غم ، منذ أن قرأ في مجلة عن الطريقة التي يُطهّر بها أمعاءهم الشباب المستجدون في دير بوذي في الهند . العملية تتألف من ثلاثة تمارين رياضية ، وحبلٍ ومبولة للغائط . ولها بساطة ووضوح الأشياء والأعمال الكاملة ، مثل الدائرة والجماع . كاتب النص ، وهو أستاذ يوغا بلجيكي ، كان قد مارس معهم خلال أربعين يوماً لكي يتقن تلك التقنية . ولكن وصفه للتمارين الثلاثة التي يُعجّل بها المستجدون عملية التغوط لم يكن واضحاً مع ذلك بما يكفي لتصوره بطريقة شاملة ومحاكاته . ويؤكد أستاذ اليوغا أنه خلال تمارين الانحناء والالتواء والدوران تلك ، تذيب المعدة كل نجاسات وفضلات الوجبات الخاصة (وهي نباتية) التي يخضع المستجدون لتناولها . وبعد الانتهاء من مرحلة التطهر الأولى هذه للبطون ، يعمد الشبان ـ وتصور دون ريغوبيرتو بشيء من الكآبة رؤوسهم الحليقة وأجسادهم المتقشفة الملتفة بعباءات لها لون الزعفران أو ربما الثلج ـ يعمد الشبان إلى اتخاذ الوضع المناسب : مرنون ، منحنون ، الساقان متباعدتان قليلاً وباطن القدمين مستقر جيداً على الأرض حتى لا يتحركوا ميليمتراً واحداً بينما الجسد ـ حَيّة تبتلع ببطء الدودة اللانهائية ـ يمتص بتقلصات وتشنجات عكسية ، ذلك الحبل الذي ينثني وينبسط ويتقدم بهدوء وبصورة حتمية عبر متاهة الأمعاء الرطبة ، دفعاً بطريقة لا تُقاوم كل تلك البقايا ، والفضلات ، والعوالق ، والجُزئيات ، والزوائد التي خلفتها الكتل المغادرة وراءها .

« إنهم يتطهرون مثل من ينظف بندقية بالمِدك » ، فكر وهو ممتلئ بالحسد . وتصور رأس الحبل المتسخ حين يرجع إلى الدنيا من عين المؤخرة الكيفيدوية ، بعد أن يكون قد جاب ونظف كل تلك الأحشاء الملتوية والمظلمة ، ورآه يخرج ويسقط في المبولة مثل حية ذاوية . وهناك يبقى ، مهملاً ، مع آخر النجاسات التي أخرجها حضوره ، وجاهزاً للحرق . يا للراحة التي يشعر بها أولئك الشبان! يا للخفة التي يشعرون بها! يا للطهارة! لا يمكنه محاكاتهم أبداً في تلك التجربة على الأقل . ولكن دون ريغوبيرتو كان واثقاً من أنهم إذا كانوا يتفوقون عليه في تعقيم الأمعاء ، فإنه أشد تدقيقاً بما لا يقاس في كل طقوس نظافته الأخرى من أولئك الغريبين .

قام بدفعة أخيرة ، متحفظة ودون صوت ، لعل هناك شيئاً . أتكون صحيحة تلك الطرفة التي تقول إن الكاتب العلامة دون مارثيلينو مينينديث أي بيلايو[1] الذي كان يعاني من إمساك مزمن ، قد أمضى شطراً كبيراً من حياته جالساً في المرحاض ، في بيته في سانتانديير ، وهو يشدّ جاهداً ؟ وهناك من أكد لدون ريغوبيرتو أنه يمكن للسائح أن يرى في بيت ـ متحف المؤرخ والشاعر والناقد الشهير ، المكتب النقال الذي أمر بصنعه لكي لا يقطع أبحاثه وتحقيقاته بينما هو يصارع ضد بطنه النهم المصرّ على عدم التخلي عن القذارة البرازية المودعة فيه من المأكولات الاسبانية الوافرة والغليظة . وكان دون ريغوبيرتو يتأثر وهو يتخيل ذلك المثقف المربوع ذا العقل المنفتح والمعتقدات الدينية الراسخة ، قابعاً على مرحاضه الخاص ، ربما وهو متدثر ببطانية سميكة ذات مربعات تغطي ركبتيه لمقاومة برد الجبال الجليدي ، يدفع ويدفع على امتداد الساعات ، في الوقت الذي يواصل فيه ،

---

(١) مؤرخ وكاتب إسباني مشهور ، ولد في سانتانديير ١٨٥٦ وتوفي في عام ١٩٦٨ .

بأعصاب هادئة ، نبش المصنفات القديمة والمطبوعات البدائية المعفرة حول تاريخ إسبانيا بحثاً عن هرطقات ، وكفر ، وانشقاقات ، وتجديفات ، وشذوذات مذهبية ليصنفها ويدرسها .

مسح مؤخرته بأربع مربعات مطوية من الورق الصحي ثم أجرى دفقة الماء . ذهب بعد ذلك ليجلس على البيديه ، ملأه بالماء الفاتر ، ودعك شرجه وقضيبه وخصيتيه بالصابون جيداً ، وكذلك عانته وما بين فخذيه وإليتيه . ثم شطف كل ذلك بالماء ومسحه بمنشفة نظيفة .

اليوم هو الثلاثاء ، يوم القدمين . فقد كان أسبوعه موزعاً على الأجهزة والأعضاء : الاثنين لليدين ، الأربعاء للأذنين ، الخميس للأنف ، الجمعة للشعر ، السبت للعينين ، ويوم الأحد للبشرة . إنه العنصر المتغير في طقوسه الليلية ، العنصر الذي يمنحه نفحة تغييرية وإصلاحية . فالتركيز في كل ليلة على منطقة من جسده يتيح له أن ينجز نظافته وصيانته باهتمام أكبر ؛ وفي الوقت نفسه معرفة هذه المنطقة ومحبتها أكثر . فكون العضو أو الجزء سيد اهتماماته ليوم ، يضمن العناية بالكل : ليس هناك أفضليات ولا تأخيرات ، لا شيء من التراتبية الكريهة في المعاملة والاعتبار للجزء وللكل . وفكر : « جسدي هو ذلك الشيء المستحيل : مجتمع المساواة » .

ملأ المغسلة بالماء الفاتر ، وبينما هو جالس على غطاء مقعد المرحاض ، نقع قدميه لوقت لا بأس به لكي يَطْرى كعباه ، وباطن قدميه ، وأصابعهما ، وكاحلاه ، وظاهر القدمين . لم يكن هناك أي نتوء في الإبهام ولا تسطح في القدمين ، ولكن ظاهرهما كان مرتفعاً بإفراط . ياه ، إنه تشوه صغير ، لا يلحظه من لا يخضعهما لفحص سريري . أما بالنسبة إلى حجم ، وتناسق ، وشكل الأصابع والأظفار ، وهيئة ومواصفات العظام ، فكل شيء يبدو طبيعياً بصورة مقبولة . الخطر كان يتمثل في التصلبات

والخشونات التي تحاول تشويههما بين فترة وأخرى . ولكنه يعرف كيف يقطع دابر الخبث من جذوره ومنذ وقت مبكر دوماً .

كان حجر الخَفَاف جاهزاً . بدأ بالقدم اليسرى . وهناك ، عند حافة الكاحل ، حيث يزداد احتكاك الحذاء ، كان قد بدأ بالظهور تصلب عارض . راح يمر عليه مرة بعد أخرى بحجر الخفاف إلى أن اختفى . وأحس بسعادة أن تلك الحافة قد استعادت النعومة والنقاء اللذين ينعم بهما محيطها . ومع أن أصابعه لم تعثر على أي تصلب أو خشونة مؤكدة ، إلا أنه ، وعلى سبيل الاحتياط ، فرك بالحجر الخفاف باطن القدمين وظاهرهما ، وكذلك أصابع القدمين العشرة .

تناول بعد ذلك المقص والمبرد المهيئين سلفاً ، واستعد لقص الأظفار وتشذيبها ، إنها لذة لطيفة . الخطر الذي كان يحاول تفاديه هو داحوس الإصبع . وقد كان لديه منهج لا يخيب ، هو نتيجة ملاحظته الصبورة ومخيلته العملية : إنه يقص الظفر على شكل هلال ، تاركاً في الطرفين قرنين بارزين لا يلمسهما ، وبفضل شكلهما ذاك يبرزان من اللحم ولا ينغرسان فيه أبداً . وهكذا يكون بالإمكان ، فضلاً عن ذلك ، تنظيف هذه الأظفار الهلالية بصورة أفضل ، بفضل شكلها القمري في المحاق : فطرف المبرد يدخل بسهولة في الخندق أو التجويف ما بين الظفر واللحم حيث يتراكم الغبار ، ويتكثف العرق ، وتختفي بعض الشوائب . عندما انتهى من تقليم أظفاره وتنظيفها وتشذيبها ، كشط القشيرات بإسهاب حتى أخرج تلك التكونات السرية ، البيضاء ، المتبلورة في ثنايا القدمين بسبب الاحتكاكات وانعدام التهوية والتعرق .

انتهى من مهمته ، وتأمل قدميه وتلمسهما بتأثر راضٍ . ألقى إلى المرحاض القشيرات والقذارات التي جمعها في قطعة ورق صحي وشدّ سلسلة

تدفق الماء . ثم دلك قدميه بالصابون وشطفهما بالماء بعناية بالغة . وبعد أن جففهما ، نثر عليهما مسحوقاً يكاد لا يُرى وتنطلق منه رائحة خفيفة ورجولية ، كرائحة أزهار رقيب الشمس عند الفجر .

بقي عليه أن يكمل المهمات الثابتة في طقس النظافة اليومي : الفم والإبطين . وعلى الرغم من أنه كان يركز عليهما بحواسه الخمس ، مانحاً نفسه كل الوقت اللازم من أجل نجاح العملية ، إلا أنه كان يتقنها إلى حد يمكن معه لطقوس اهتمامه أن تنقسم وأن تتكرس جزئياً أيضاً كمبدأ جمالي ، مختلفة في كل يوم عن غيره من أيام الأسبوع ، مبدأ يستخرجه من ذلك المرجع ، أو القائمة ، أو الوصايا التي صاغها هو نفسه ، بصورة سرية أيضاً ، في هذه التحديدات الليلية ، في موضوع النظافة . والتي تشكل ديانته الخاصة وطريقته الشخصية في تجسيد اليوتوبيا .

وبينما هو يضع فوق طاولة الرخام الأمغر ، المعرق بالأبيض ، أدوات القداس الفموي ـ كأس ماء ، خيط تنظيف ، معجون أسنان ، فرشاة ـ اختار إحدى أكثر المسلمات التي هو متأكد منها... المبدأ الذي ما إن صاغه حتى لم تعد تراوده أية شكوك فيه على الإطلاق : «كل ما يلمع قبيح ، وخصوصاً الرجال اللامعون» . ملأ فمه بجرعة ماء وتمضمض بقوة ناظراً في المرآة إلى انتفاخ خديه ، وبينما هو يواصل المضمضة ليتخلص من الفضلات المفلتة أو المترسبة على اللثتين أو العالقة بضعف بين الأسنان ، فكر : «هناك مدن لامعة ، ولوحات وقصائد لامعة ، وحفلات ، ومناظر ، وصفقات ، ومحاضرات لامعة» . ولا بد من تجنبها مثل العملة الرديئة حتى ولو كانت مطبوعة بألوان كثيرة ، أو مثل تلك المشروبات التروبيكالية المعدّة للسياح ، والمزينة بفواكه وعيدان ملونة والمحلاة كالشراب .

كان قد أمسك بين إبهام وسبابة كل يد بأحد طرفي قطعة خيط أسنان

طولها عشرين سنتمتراً . بدأ كعادته بالأسنان العلوية ، من اليمين إلى اليسار ثم من اليسار إلى اليمين ، متخذاً من القواطع نقطة انطلاق . كان يُدخل الخيط في الفجوة الضيقة ويرفع به حواف اللثة ، حيث تتراكم دوماً جزيئات فتات الخبز ، وفتائل اللحم الدقيقة ، والألياف النباتية ، وشعيرات الفواكه البغيضة . وكان ينظر بحماس طفولي إلى خروج هذه الفضلات الدخيلة ، مُستأصلة بالخيط ومهارته الاكروباتية . يبصقها في المغسلة ويراها تنزلق وتختفي في البالوعة ، تسحبها الدوامة الصغيرة التي يشكلها الماء المندفع من الصنبور . ويفكر في أثناء ذلك : «هناك شعور لامعة تتوج أدمغة مُظلمة أو تحولها كذلك . إن أقبح كلمة في اللغة القشتالية هي مُلمّع الشعر(برينتين)» . عندما انتهى من كشط صف الأسنان العلوي تمضمض من جديد ونظف الخيط تحت الماء المتدفق من الصنبور . ثم بدأ بالتألق نفسه والحرفية ذاتها بتنظيف أسنان وأضراس الطابق السفلي . «هناك محادثات لامعة ، موسيقى لامعة ، أمراض لامعة مثل التحسس من حبوب الطلع ، والنقرس ، والاكتئاب ، والإجهاد . وهناك بالطبع لامعون لامعون .» تمضمض مرة أخرى وألقى بقطعة الخيط في سلة المهملات .

يمكنه الآن أن يفرشي أسنانه بالمعجون . وفعل ذلك ، محركاً الفرشاة من أعلى إلى أسفل ببطء ، وضاغطاً عليها لكي تتغلغل أوبارها ـ وهي أوبار طبيعية ولا يمكن أن تكون بلاستيكية بأي حال ـ إلى حميمية تلك الفجوات العظمية بحثاً عن فضلات الطعام التي نجت من تجريف خيط الأسنان . فرشى أولاً الوجه الخارجي ثم بعد ذلك الداخلي . وعندما تمضمض للمرة الأخيرة ، أحس في فمه بطعم النعناع والليمون اللطيف ، شديد الإنعاش والحيوية ، وكأن أحداً قد شغّل فجأة مروحة في تلك الفجوة المحاطة باللثتين والحلق ، أو أشعل فيها مكيف الهواء ، وكما لو أن أسنانه وأضراسه لم تعد هذه العظام

الصلبة وغير الحساسة ، واكتسبت حساسية شفتين . «أسناني لامعة» ، فكر بشيء من الغم . «حسن ، ربما هو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة .» وفكر : «هناك نباتات لامعة مثل الوردة . وحيوانات لامعة مثل قط الأنغورا» .

ورأى فجأة دونيا لوكريثيا عارية ، تتلاعب مع عشر قطيطات أنغورا تحتك بكل أجزاء جسدها البديع ، وتموء ، ولخشيته من أن يأتيه انتصاب مبكر ، سارع إلى غسل إبطيه . إنه يفعل ذلك عدة مرات في اليوم : في الصباح ، عندما يستحم ، وفي حمام شركة التأمين عند الظهر ، قبل الخروج للغداء . ولكنه في هذا الوقت فقط ، في الطقوس الليلية ، يفعل ذلك وهو يعي ويستمتع مثل من يمارس لذة محرمة دون زيادة ولا نقصان . شطف في أول الأمر إبطيه بماء فاتر وكذلك ذراعيه ، وكان يدلكهما بقوة لتنشيط الدورة الدموية . ثم ملأ المغسلة بماء ساخن ووضع فيه قليلاً من الصابون المعطر إلى أن رأى السطح السائل يعج بالرغوة . غمس كل واحد من ذراعيه في السخونة المداعبة وفرك الإبطين بصبر ومحبة ، مشعثاً ومحللاً خصل شعرهما الأشهب في ماء الصابون . بينما كان ذهنه يواصل : «هناك عطور لامعة مثل عطر الورد والكافور» . وأخيراً جفف إبطيه وعطرهما بكولونيا خفيفة جداً ، توحي برائحة البشرة المبللة بالبحر أو بنسمة بحرية تضمخت في مرورها بدفينة زهور .

«إنني كامل» ، قال ذلك وهو ينظر إلى نفسه في المرآة ، ويشم رائحته . لم يكن هناك في تفكيره أي ذرة من الغرور . فهذا الاعتناء الدقيق جداً بجسده لم يكن يهدف به إلى جعل نفسه أكثر تأنقاً أو أقل قبحاً ، هذه التجملات التي تكرس بطريقة ما ـ ودون وعي في أغلب الأحيان ـ المثل الأعلى الاجتماعي المبتذل ـ أولا يبدو «جميلاً» على الدوام في نظر الآخرين ؟ ـ ، وإنما جعله يشعر ، بهذه الطريقة ، بأنه يعرقل إلى حد ما

معول الزمن القاسي ، وأنه يوقف أو يؤخر بذلك التردي المشؤوم الذي تفرضه الطبيعة لتقويض ما هو موجود . الإحساس بخوض هذه المعركة يبعث الراحة في نفسه . ولكنه فوق ذلك ، ومنذ أن تزوج ، كان يقاتل ، دون أن تعرف لوكريثيا ذلك ، ضد التردي باسم زوجته أيضاً . وفكر : «مثلما كان يقاتل آماديس من أجل أوريانا» . وفكر : «لكِ ومن أجلك يا حبي» .

تصوره أنه سيجد زوجته ـ بعد أن يطفئ النور ويخرج من الحمام ـ في الفراش ، تنتظره في شبه إغفاءة حسية ، كل تكوراتها متأهبة ومستعدة للاستيقاظ بمداعباته ، شقه من رأسه إلى قدميه . «لقد أكملتِ الأربعين ولم تكوني يوماً أجمل مما أنت عليه» دمدم وهو يتقدم نحو الباب . «أحبك يا لوكريثيا» .

وقبل ثانية واحدة من غرق الحمام في الظلام ، لمح في إحدى المرايا أن انفعالاته ومغازلاته قد حولت إنسانيته إلى شبح محارب ، إلى بروفيل شخصية فيها شيء حيواني عجيب من ميثولوجيا العصور الوسطى : الحصان المقرن .

« ٧ »

فينوس مع آمور وموسيقى [1]

إنها فينوس الإيطالية ، ابنة جوبيتر ، وأخت أفروديت الإغريقية . عازف الأرغُن يعطيها درساً في الموسيقى . وأنا أدعى «آمور» . إنني صغير ، طري ، وردي ، ومجنح . عمري ألف سنة وأنا متعفف مثل يعسوب . الغزال والطاووس والأيِّل التي تبدو من النافذة هي حية تماماً مثل العاشقين المتلاصقين اللذين يتمشيان في ظل أشجار الممر . أما ساتور النافورة الذي يتدفق من رأسه ماء بلوري من جفنة مرمرية ، فهو غير حي : إنه قطعة رخامية توسكانية نحتها فنان ماهر آت من جنوبي فرنسا .

ونحن الثلاثة أحياء أيضاً ومستيقظين مثل الجدول النازل من الجبل مغرداً بين الحجارة أو مثل لغط الببغاوات التي باعها إلى سيدنا دون ريغوبيرتو تاجر من أفريقيا . (الحيوانات الحبيسة تعاني الضجر الآن في قفص في الحديقة .) لقد بدأ الغسق وعما قريب سيخيم الليل . وعندما يصل الليل بأسماله الرصاصية ، يصمت الأرغُن ويتوجب علي أنا وأستاذ الموسيقى أن نغادر لكي يدخل سيد كل ما هو مرئي هنا إلى هذه الغرفة ويستولي على

---

(١) راجع اللوحة رقم (٢)

سيدته . وعندئذ تكون فينوس ، بفضل إرادتنا ومساعينا الحميدة ، مستعدة لاستقباله وإمتاعه بما هو جدير بثروته ومكانته . هذا يعني بنار بركان ، وحسية ثعبان ، وزهو قطة أنغورا .

الأستاذ الشاب وأنا لسنا موجودين هنا للاستمتاع وإنما للعمل ، مع أن كل عمل ، وهذا صحيح ، يُنجز بفعالية وقناعة يتحول إلى لذة . ومهمتنا تتلخص في إيقاظ السعادة الجسدية في السيدة ، بإحياء رماد كل حاسة من حواسها الخمس حتى تتحول إلى لهيب ، وملء رأسها الأشقر بخيالات فاحشة . هذا ما يحبه دون ريغوبيرتو الذي نسلّمه إياها : متأججة ونهمة ، متخلصة من كل نوازعها الأخلاقية والدينية ، وعقلها وجسدها محشوان بالشهوات . إنها مهمة لطيفة ولكنها ليست سهلة ؛ تتطلب الصبر ، والمكر ، والمهارة في فن مواءمة اندفاع الغريزة مع رهافة الروح ورقة القلب .

موسيقى الأرغن الرتيبة والكنسية لا تخلق الجو المناسب . فالتفكير الشائع أن الأرغن ، المرتبط بالقداديس والإنشاد الديني ، يجرد الفاني الذي يسمع أنغامه من الحسية ، بل ويجرده كذلك من اللذة الجسدية . إنه خطأ فاحش ؛ فالحقيقة أن موسيقى الأرغن بفتورها اللجوج المتسلط وموائها العذب لا تؤدي إلا إلى فصل المسيحي عن العصر وعن الأحداث ، وإبعاد روحه بحيث يمكنها التقلب في شيء حصري ومختلف : أجل ، في فكرة الرب والخلاص في حالات لا حصر لها ؛ ولكن في أشياء أخرى كثيرة أيضاً ، مثل الخطيئة ، الضياع ، الشبق ، وغيرها من المترادفات البلدية الفظة التي تعبر عنها هذه الكلمة النقية : اللذة .

صوت الأرغن يجعل السيدة تستكين وتنكمش ؛ يباغتها سكون لين يشبه النشوة ، فتغمض عندئذ عينيها لتركز أكثر في اللحن الذي كلما تغلغل فيها ، يُبعد عن روحها مشاغل ومنازعات اليوم ويفرغه من كل ما هو غير

الاستماع والحس الصافي . هكذا تكون البداية . الأستاذ يعزف برشاقة وانطلاق ، دون تسرع ، بتصاعد عذب مهدئ للأعصاب ، مختاراً مقطوعات ملتبسة تنقلنا بسرية إلى الخلوات المتقشفة للقديس برناردو ، وإلى مواكب الشوارع التي تتشكل فجأة في كرنفال وثني ، ثم من هناك ، ودون فاصل انتقالي ، إلى كورال التراتيل الغريغورية في دير أو إلى قداس مغنى في كتدرائية مع فيض من الكردينالات ، وأخيراً رقصة تنكرية مختلطة ، في منزل ريفي . النبيذ يسيل بغزارة وهناك تبدلات مريبة في عرائش الحديقة . راعية صغيرة جميلة تجلس على ركبتي عجوز شبق ومكرش ، ينزع قناعه فجأة . فمن يكون ؟ إنه أحد العاملين في الإسطبل! أو إنه أبله القرية المخنث الذي له قضيب رجل وثديي امرأة!

وسيدتي ترى هذه الصور لأني أصفها لها في أذنها ، بصوت هامس ماجن ، على إيقاع الموسيقى . فمعارفي تترجم لها أنغام الأرغن المتواطئة إلى أشكال وألوان وصور وأعمال مهيجة . وهذا هو ما أفعله الآن وأنا شبه ملتحم بظهرها ، وجهي الناعم الصقيل بارز مثل رابية صغيرة فوق كتفها : أهمس لها خرافات آثمة... قصصاً خيالية تشغل ذهنها وتجعلها تبتسم ، قصصاً خيالية تهيجها وتلهبها .

لا يمكن للأستاذ أن يتوقف لحظة واحدة عن عزف الأرغن : لأنه سيفقد رأسه إن فعل ذلك . لقد حذره دون ريغوبيرتو مسبقاً : «إذا ما توقفتْ الأنغام لحظة واحدة ، فسوف أفهم من ذلك أنك قد استسلمت لإغواء اللمس . وعندئذ سأغرس هذا الخنجر في قلبك وألقي بجثتك إلى كلاب الصيد . وسنعرف الآن ما هو الأقوى فيك يا فتى : الرغبة في زوجتي أم التعلق بالحياة» . إنه التعلق بالحياة طبعاً .

ولكنه يستطيع النظر بينما هو يضغط على ملامس الأرغن . وهذا

امتياز يشرّفه ويهيجه ، ويجعله يشعر بأنه ملك أو إله . إنه يستغل هذا الامتياز باستمتاع وتلذذ . كما أن نظراته تسهّل مهمتي وتكملها ، لأن السيدة حين تلحظ الحرارة والولاء اللذين تسجيهما لها عينا ذلك الوجه الأمرد ، وتحدس اللهفة المحمومة التي توقظها تكوراتها البيضاء اللدنة في هذا الفتى الحساس ، لا تستطيع منع نفسها من التأثر والوقوع في نزوات شهوانية .

وخصوصاً عندما ينظر عازف الأرغن إلى حيث ينظر الآن . ما الذي يجده أو يبحث عنه الموسيقي الشاب في ذلك الركن الفينوسي ؟ ما الذي تحاول اختراقه حدقتاه العذراوان ؟ ما الذي يجذبه بهذه الطريقة إلى مثلث البشرة الشفاف ذاك ، المحاط بأوردة زرقاء مثل جداول ، والذي يظلله دغل العانة منزوعة الشعر ؟ أنا لا أستطيع قول ذلك ، وأظنه غير قادر هو أيضاً على قوله . ولكن ثمة شيء هناك يجتذب عينيه كل مساء بتسلط القضاء والقدر أو بسحر رُقْية . شيء يمكن التكهن أنه عند الحافة المشمسة لقمة فينوس ، في التجويف الطري الذي يحميه عمودا فخذي السيدة المسبوكين ، يسيل ينبوع الحياة واللذة إسفنجياً ، محمراً ، رطباً بندى الحميمة . وعما قريب سينحني سيدنا دون ريغوبيرتو لينهل من ذلك الكوثر . عازف الأرغن يعرف أن هذا الشراب محرم عليه إلى الأبد لأنه سيدخل عما قريب إلى دير الرهبان الدومينكان . إنه فتى نقي أحس منذ طفولته المبكرة بنداء الرب ولا يمكن لأي شيء أو لأي شخص أن يُبعده عن الرهبنة . مع أن هذه الجلسات الغسقية ، مثلما اعترف لي ، تجعله يتعرق ثلجاً وتملأ أحلامه بشياطين لهم أثداء ومؤخرات نساء ، ولكنها لا تُضعف ميله الديني . بل إنها أقنعته ، من أجل إنقاذ روحه ومساعدة آخرين في إنقاذ أرواحهم ، بالتخلي عن مباذخ هذا العالم ولحمه . ربما هو ينظر إلى بستان سيدته المجعد لمجرد أن يثبت

لنفسة ويُظهر للرب أنه قادر على مقاومة وساوس الإغواء ؛ بما في ذلك أشدها شيطانية : جسد سيدتنا الخالد .

أنا وهي لا نعرف هذه المشاكل الضميرية والأخلاقية . فأنا لستُ إلا إله وثني صغير ، والأدهى أنه لا وجود لي إلا في مخيلة البشر ، أما هي ، فإنها زوجة مطيعة تُخضع نفسها لهذه الجلسات التحضيرية لليلة الزوجية احتراماً لمشيئة زوجها الذي يبرمجها في أدق تفاصيلها . هذا يعني إذن أنها زوجة منقادة لإرادة سيدها ، مثلما يجب أن تكون الزوجة المسيحية ، فإذا ما كانت هناك خطيئة في هذه المآدب الحسية ، فمن المفروض أن تُسوَّد فقط روح من يُحيكها ويأمر بها من أجل متعته الشخصية .

كما أن تسريحة شعر السيدة الدقيقة والمعقدة بتجعيداتها وتموجاتها وكثرة تغنجاتها المنسدلة ، وارتفاعاتها وزينتها باللآلئ الغريبة ، هو مشهد يرتبه دون ريغوبيرتو نفسه . فهو من يعطي تعليمات محددة إلى مصففي الشعر ، وهو من يستعرض يومياً ، مثلما يستعرض القائد جنده ، جيش حليَ زينة السيدة ليختار أيها سيتألق اليوم على شعرها ، وأيها سيحيط بجيدها ، وسيتدلى من أذنيها الشفافتين وسيضغط على أصابعها ومعصميها . وهي تقول إنه يهمس لها وهو يحبها : «أنتِ لستِ أنت وإنما أنت وهمي . لن تكوني اليوم لوكريثيا وإنما فينوس ، وستتحولين اليوم من بيروية إلى إيطالية ومن دنيوية إلى إلهة ورمز» .

ربما كانت كذلك في أوهام دون ريغوبيرتو الغامضة ، ولكنها ما تزال واقعية ، مادية ، حية مثل وردة لم تُقطف من الغصن أو مثل عصفور يغرد . أليست امرأة جميلة ؟ بلى ، إنها باهرة الجمال . وخصوصاً في هذه اللحظة ، عندما بدأت حواسها تستيقظ ، تنبهها خيمياء الألحان الذكية المنبعثة من الأرغن ، ونظرات الموسيقي الهيابة ، والبذاءات الملتهبة التي أُقطَرها في

مسمعها . يدي اليسرى التي فوق صدرها ، تحس كيف أخذت بشرتها تتوتر وتسخن . لقد بدأ دمها يفور . هذه هي اللحظة التي تبلغ فيها الذروة ، أو (لنقل ذلك بطريقة مثقفة) اللحظة التي يسميها الفلاسفة المطلق أو التي يسميها الخيميائيون تحول المادة .

الكلمة التي يمكنها أن تلخص جسدها هي : ممتلىء . متهيج بخيالاتي الشبقة ، كل شيء فيها يتحول إلى انحناء ونتوء ، إلى تكور متعرج ولين في الوقت نفسه . هذا هو القوام الذي يفضله الذواقة الجيد لرفيقته في ساعة الحب : وفرة طرية تبدو وكأنها على وشك أن تسيل ولكنها تبقى متماسكة ، منفلتة ، لدنة مثل الثمرة الناضجة والعجينة المعجونة حديثاً ، هذه البنية اللينة التي يسميها الإيطاليون morbidezzqa ، الكلمة التي لها رنة شبقة حتى عندما تطلق على الخبز .

والآن وقد اشتعلتْ من الداخل ، رأسها يومض بصور ماجنة ، سأتسلق ظهرها وأتقلب فوق جغرافية جسدها الصقيل ، مدغدغاً إياها بجناحي في الأماكن المناسبة ، وواثباً بمرح مثل جرو سعيد على وسادة بطنها الدافئة . حركاتي المتلاعبة هذه تُضحكها وتأجج جسدها حتى تحوله إلى جمرة . إن ذاكرتي تسمع ضحكتها التالية التي ستأتي ، ضحكة تطغى على تأوهات الأرغن وتغطي شفتي الأستاذ الشاب بلعاب سائل . عندما تضحك تتصلب حلمتا نهديها وتنتصبا وكأن فماً غير مرئي يرضع منهما ، وتهتز عضلات معدتها تحت البشرة المشدودة العابقة برائحة الفانيليا موحية بغنى كنز حميميتها بدفئه وعرقه . وفي هذه اللحظة يتمكن أنفي الأفطس من شمّ أريج عصارتها السرية العابقة مثل جبن زنخ . عطر قيح الحب هذا يجنن دون ريغوبيرتو الذي ـ وهي أخبرتني بذلك ـ ، يجثو مثل من يصلي ، ليرتشفه ويشرب منه إلى أن تُسكره السعادة . وهو يؤكد أنه المنشط الجنسي

الأفضل من كل أكاسير الخلائط القذرة التي يبيعها سحرة وقوادات هذه المدينة للمحبين . «طالما أنت تعبقين بهذه الرائحة ، سأكون عبدك» ، تقول هي إنه يقول لها ذلك بلسان مرتخ وبنشوة الحب .

عما قريب سيُفتح الباب ونسمع همس خطوات دون ريغوبيرتو على السجادة . قريباً سنراه يطل على حافة هذا السرير ليتأكد إذا ما كنا قادرين ، أنا والأستاذ ، على تقريب الواقع المبتذل من بريق مخيلته . وحين يسمع ضحك السيدة ، ويراها ، ويتنفسها ، يدرك أن شيئاً من ذلك قد تحقق . وعندئذ يقوم بإيماءة موافقة لا تكاد تكون ملحوظة ، وهي تعني بالنسبة إلينا الأمر بالانصراف .

يصمت الأرغن ؛ وبتحية عميقة ، يختفي الأستاذ عبر فناء أشجار البرتقال وأقفز أنا عبر النافذة وأبتعد محلقاً نحو ليل الحقول الشذي .

ويبقيان هما الاثنان وحدهما في الغرفة مع همهمات حربهما الرقيقة .

« ٨ »

ملح دموعه

كانت عينا خوستينيانا مفتوحتين مثل طبقين ولا تتوقفان عن الحركة . وكانت ذراعاها تبدوان وكأنهما ريشتا مروحة :

ـ الطفل ألفونسو يقول إنه سينتحر! لأنك ما عدت تحبينه على حد قوله! ـ وترمش مذعورة ـ . إنه يكتب إليك رسالة وداع يا سيدتي .

ـ أهذه واحدة أخرى من هذياناتك التي... ؟ ـ تلعثمت دونيا لوكريثيا بينما هي تنظر إليها من خلال مرآة خوان الزينة ـ . يبدو أن هناك عصافير في رأسك ، أليس كذلك ؟

ولكن وجه الخادمة لم يكن مازحاً ، فأفلتت دونيا لوكريثيا ملقط الشعر الذي كانت تشذب به شعر حاجبيها وتركته يسقط على الأرض واندفعت راكضة تهبط السلّم ، تتبعها خوستينيانا . كان باب غرفة الطفل مقفلاً بالمفتاح . طرقت الخالة بأصابعها : «ألفونسو ، ألفونسيتو» . فلم يأتها أي رد ولم يُسمع أي صوت في الداخل .

ـ فونتشو! فونتشيتو! ـ ألحت دونيا لوكريثيا وهي تطرق الباب مجدداً . وكانت تشعر بأن ظهرها يتجمد ـ . افتح! هل أنت على ما يرام ؟ لماذا لا تجيب ؟ ألفونسو!

دار المفتاح في القفل ، محدثاً صريراً ، ولكن الباب لم يُفتح . ابتلعت دونيا لوكريثيا جرعة من الهواء . وعادت الأرض راسخة من جديد تحت قدميها ، وبدأ العالم يستعيد نظامه بعد أن كان جلبة زلقة .

أمرت خوستينيانا :

ـ دعيني معه على انفراد .

دخلت إلى الغرفة ، وأغلقت الباب وراءها . كانت تبذل مجهوداً لتكبح السخط الذي راح يستولي عليها بعد أن انقضى الذعر الآن .

كان الطفل ما يزال بقميص وبنطال الزي المدرسي ، وكان يجلس إلى طاولة عمله ، خافضاً رأسه . رفعه ونظر إليها بثبات وحزن ، وبدا أجمل مما كان عليه على الإطلاق . وبالرغم من أن الضوء كان ما يزال يأتي من الخارج ، إلا أنه كان قد أشعل مصباح المنضدة ، وفي دائرة الضوء الذهبية التي تسقط على النشافة المائلة إلى الخضرة ، لمحت دونيا لوكريثيا رسالة غير مكتملة ، حبرها مازال يلمع ، ورأت قلماً مفتوحاً إلى جانب يده الصغيرة ذات الأصابع الملطخة .

اقتربت بخطوات بطيئة وهمست :

ـ ماذا تفعل ؟

كان صوتها يرتعش ، وكذلك يداها ؛ وكان صدرها يعلو وينخفض .

ورد الطفل على الفور بحزم :

ـ أكتب رسالة . إنها موجهة إليك .

فابتسمت محاولة أن تبدي الملاطفة :

ـ موجهة إليّ ؟ هل يمكنني قراءتها إذن ؟

ـ ليس بعد ـ وكان في نظرته تصميم رجولي وفي نبرة صوته تحدٍ واضح : ـ إنها رسالة وداع .

ـ رسالة وداع ؟ وهل أنت ذاهب إلى مكان ما يا فونتشيتو ؟

ـ سأقتل نفسي ـ سمعته دونيا لوكريثيا يقول ذلك وهو ينظر إليها بثبات ودون أن يتحرك . لكن تماسكه ما لبث أن انكسر بعد ثوانٍ قليلة وتخضلت عيناه : ـ لأنك لا تحبينني يا خالتي .

سماعه يتكلم بهذه النبرة ما بين المغمومة والعدوانية ، بوجهه الصغير المتجعد في تكشيرة يحاول عبثاً كبحها ، مستخدماً كلمات عاشق مخذول لا تتوافق كثيراً مع وجهه الأمرد ، وبنطاله القصير ، كل ذلك جرد دونيا لوكريثيا من مقاومتها . فوقفت صامتة ، مفتوحة الفم ، لا تدري بماذا ترد .

ـ ولكن ، ما هذه الحماقات التي تتفوه بها يا فونتشيتو ـ تلعثمت أخيراً ، محاولة التماسك قدر الإمكان : ـ أتقول إنني لا أحبك ؟ ولكنني أعتبرك يا قلبي مثل ابن لي . أنا أعتبرك...

صمتت ، لأن ألفونسو ألقى بجسده عليها واحتضنها من خصرها ، وانفجر بالبكاء . كان ينتحب ملصقاً وجهه ببطن دونيا لوكريثيا ، بينما جسده الصغير يهتز بزفرات يرافقها لهاث متلهف كلهاث جرو جائع . إنه طفل ، أجل ، ليس هناك شك في ذلك الآن ، بسبب اليأس الذي في بكائه واستهتاره في إظهار ألمه وحزنه دون حياء . وداعبت دونيا لوكريثيا شعره بينما هي تناضل كيلا يهزمها التأثر الذي بدأ يطبق على حنجرتها ويخضل عينيها . كانت مضطربة ، ضحية مشاعر متناقضة ، وهي تسمعه يفيض بمكنون قلبه ، متلعثماً بشكاويه :

ـ منذ أيام وأنتِ لا تكلمينني . أسألك شيئاً فتعرضين عني . ولم تعودي تسمحين لي بتقبيلك مع تحية الصباح والمساء ، وحين أرجع من المدرسة تنظرين إليّ وكأن دخولي إلى البيت يزعجك . لماذا يا خالتي ؟ ما الذي فعلته لكِ ؟

كانت دونيا لوكريثيا تعارضه وتقبل شعره . لا يا فونتشيتو ، لا شيء مما تقوله صحيح . أي حساسية هذه أيها الصغير! وكانت تبحث عن أكثر الأساليب رفقاً لكي توضح له . وكيف لا أحبك! يا صغيري ، يا قلبي! ولكنها تعيش متعلقة به ومفكرة به على الدوام ، سواء حين يكون في المدرسة أو حين يلعب كرة القدم مع أصدقائه . وكل ما هنالك هو أنه ليس من المناسب أن يبقى ملتصقاً بها ، لأنه سيتعلق في هذه الحالة بخالته . ويمكن لهذا أن يلحق الضرر به ، ويحوله إلى شخص تافه ، شديد التهور ومندفعاً في عواطفه . فمن وجهة النظر العاطفية ، لا يستحسن أن يتعلق بشخص مثلها ، أكبر منه سناً بكثير . فعاطفته واهتماماته يجب أن يتقاسمها مع أشخاص آخرين ، مع أطفال في مثل سنه ، مع أصدقائه الصغار ، مع أبناء عمومته . وهكذا يمكن له أن يكبر بسرعة ، ويمتلك شخصيته الخاصة ، ليكون رجلاً له شخصيته المستقلة بحيث يمكن لها ولدون ريغوبيرتو أن يفخرا به فيما بعد .

ولكن بينما دونيا لوكريثيا تتكلم ، كان هناك شيء في قلبها يكذّب ما تقوله . وكانت واثقة كذلك من أن الطفل لا يولي اهتماماً لما تقوله . بل ربما لم يكن يسمعها . وفكرتْ : «لستُ مؤمنة بكلمة واحدة مما أقوله له» . وبعد أن توقف نحيب ألفونسيتو الآن ، وإن كانت ما تزال تهزه بين حين وآخر زفرة عميقة ، بدا وكأنه يركز تفكيره على يدي خالته . كان قد أمسك بهما وراح يقبلهما ببطء ، بخجل ، بمداهنة . وبينما هو يفركهما على خده الأملس بعد ذلك ، سمعته دونيا لوكريثيا يهمس بخفوت ، وكأنه يتوجه إلى الأصابع التي يضغط عليها بشدة : «أنا أحبك كثيراً يا خالتي . كثيراً ، كثيراً... لا تعامليني مثلما فعلت في هذه الأيام أبداً بعد اليوم ، وإلا فإني سأقتل نفسي . أقسم لك إنني سأقتل نفسي» .

وعندئذ بدا كما لو أن حاجزاً كان يكبحها من الداخل قد تلاشى فجأة ، وأن سيلاً جارفاً قد اندفع مكتسحاً ومُغرقاً حذرها وتعقلها ، ومحطماً مبادئ سلفية راسخة لم تكن تراودها أي شكوك بشأنها ، بما في ذلك غريزتها المحافظة . انحنت ، وأسندت إحدى ركبتيها إلى الأرض لتصبح عند مستوى الطفل الجالس ، وعانقته وداعبته متحررة من القيود ، شاعرة بأنها امرأة أخرى ، وكما لو أنها في قلب عاصفة .

ـ أبداً بعد اليوم ـ كررت ما قاله بمشقة ، لأن التأثر كان يكاد لا يسمح لها بصياغة الكلمات ـ . أعاهدك بأنني لن أعاملك أبداً هكذا . الفتور الذي أبديته في هذه الأيام كان مصطنعاً يا صغيري . كم كنت حمقاء حين ظننت بأنني أقدم لك خدمة فأسأت إليك . سامحني يا قلبي...

وكانت في الوقت نفسه تقبل شعره المشعث ، جبهته ، خديه ، وتحس في شفتيها بملح دموعه . وعندما بحث فم الطفل عن فمها ، لم تصده عنه . أغمضت عينيها وتركته يقبّلها ، وأعادت إليه القبلة . وبعد لحظة تحمست شفتا الطفل ، فألحتا ودفعتا ، وعندئذ فتحت هي شفتيها وسمحت لأفعى صغيرة عصبية ، متعثرة ومذعورة في البدء ، ثم جريئة متمادية بعد ذلك ، بولوج فمها والتجول فيه متقافزة من جهة إلى أخرى على لثتيها وأسنانها ، ولم تُبعد كذلك اليد التي أحست بها فجأة فوق أحد نهديها . استكانت للحظة بهدوء ، وكأنها تستجمع قواها ، ثم تحركت ، وداعبته وهي تهم بالانصراف بحركة وقورة ، وبرقة . وبالرغم من أن صوتاً في أعماق روحها كان يستعجلها بالنهوض والانصراف ، إلا أن دونيا لوكريثيا لم تتحرك . بل شدت الطفل إليها وواصلت دون رادع تقبيله باندفاع وتحرر يتزايدان على إيقاع رغبتها . إلى أن سمعت ، كما في حلم ، صوت فرامل سيارة ، ثم سمعت بعد قليل صوت زوجها يناديها .

نهضت قافزة ، مرتعبة ؛ وانتقلت عدوى خوفها إلى الطفل الذي تضمخت عيناه بالذعر . رأت ملابس ألفونسو المشعثة ، وآثار أحمر الشفاه على فمه . «اذهب واغتسل» ، أمرته بسرعة وهي تشير إلى وجهه ، فهز الطفل رأسه موافقاً وركض إلى الحمام .

خرجت من الغرفة دائخة ، بمشية تكاد تكون متعثرة ، واجتازت الصالون الصغير المطل على الحديقة . ثم حبست نفسها في حمام الزائرين . كانت تشعر بالوهن ، كما لو أنها قد راحت . وبينما هي تنظر في المرآة ، داهمتها نوبة ضحك هستيرية فكبحتها بتغطية فمها . وشتمت نفسها «رعناء ، حمقاء» بينما هي تبلل وجهها بماء بارد . ثم جلست بعد ذلك على البيديه وفتحت الصنبور طويلاً . ثم أخضعت نفسها لعملية تنظيف دقيقة وأعادت ترتيب ثيابها وملامحها وبقيت هناك إلى أن أحست مجدداً بأنها قد استعادت هدوءها تماماً ، وأنها تتحكم بوجهها وحركاتها . وعندما خرجت لتحيي زوجها ، كانت طازجة وباسمة وكأن شيئاً غير طبيعي لم يحدث . ولكن ، بالرغم من أن دون ريغوبيرتو قد لاحظ أنها شديدة الرقة واللطف مثلما هي كل يوم ، وطافحة بالمغازلات والاهتمام ، واستمع إلى طرائفها اليومية باهتمامه المعهود ، إلا أنه كان في دونيا لوكريثيا استياء خفي لم يفارقها لحظة واحدة ، غم يسبب لها بين وقت وآخر قشعريرة أو رعشة في بطنها .

تناول الطفل العشاء معهما . وكان رصيناً ورائعاً ، مثلما هو في العادة . واحتفل في ضحكات متقافزة بنكات أبيه ، بل وطلب منه أن يروي له غيرها ، «تلك النكات السوداء يا بابا ، تلك التي هي بذيئة بعض الشيء» . وعندما التقت عيناها بعينيه ، قدرت دونيا لوكريثيا عالياً عدم ملاحظتها في تلك النظرة الصافية ، الزرقاء الباهتة ، ظل أي سحابة ، أو أدنى بريق خبث أو تواطؤ .

بعد ساعات من ذلك ، في حميمية ظلام المخدع ، همس دون ريغوبيرتو مرة أخرى بأنه يحبها ، وبينما هو يغطيها بالقبلات ، شكرها على أيامه ولياليه ، وعلى السعادة الهائلة التي تطفح منه بفضلها . وسمعته يقول لها : «منذ أن تزوجنا وأنا أتعلم العيش يا لوكريثيا . لولاك لكنت مت دون أن أعرف حقاً ما هي المتعة .» وكانت تصغي إليه متأثرة وسعيدة ، ولكنها لم تكن قادرة حتى الآن على التوقف عن التفكير في الطفل . ومع ذلك ، فإن هذا الوجود الدخيل ، هذا الحضور الساذج والملائكي لم يكن يضعف لذتها ، بل كان يتبلها بماهية مهيجة ، محمومة .

وهمس دون ريغوبيرتو أخيراً :

ـ ألن تسأليني من أكون ؟

ـ من ، من أنت يا حبي ؟ ـ ردت عليه باللهفة المطلوبة ، مشجعة إياه .

وسمعته يقول ، وقد مضى بعيداً ، حيث لا يمكن اللحاق به في تحليق خياله :

ـ إنني مسخ .

« ٩ »

شَبَه بشري [1]

فقدتُ أذني اليسرى إثر عضة حين كنت أصارع بشرياً آخر على ما أعتقد . ولكنني مازلت أسمع مع ذلك صخب العالم من خلال الفتحة الضيقة المتبقية . وأنا أرى الأشياء أيضاً ، وإن كان ذلك بصورة مائلة وبصعوبة . فالنتوء المائل إلى الزرقة ، إلى يسار فمي ، هو عين ، وإن كان لا يبدو كذلك للوهلة الأولى . ووجودها هناك ، تعمل ، وتلتقط الأشكال والألوان ، هو إحدى أعاجيب العلوم الطبية ، وشهادة دامغة على التقدم الاستثنائي الذي يميز عصرنا الذي نعيش فيه . لقد كان محكوماً علي بأن أعيش في ظلمة أبدية ، منذ الحريق الكبير ـ ولست أذكر إذا ما سببه قصف حربي أم عمل تخريبي ـ ذلك الحريق الذي حُرم جميع الناجين منه من حاسة البصر ومن نمو الشعر ، بفعل الأكاسيد . وكان من حسن حظي أنني فقدت عيناً واحدة فقط ؛ أما العين الأخرى فقد أنقذها أطباء العيون بعد ست عشرة مداخلة جراحية . إنها بلا رموش وهي تدمع بكثرة ، ولكنها تتيح لي تسلية نفسي بمشاهدة التلفزيون ، وتتيح لي خصوصاً أن أنتبه بسرعة إلى ظهور العدو .

---

(١) راجع اللوحة رقم (٤) .

الوعاء الزجاجي الذي أنا فيه هو بيتي . أرى من خلال جدرانه ولكن لا يمكن لأحد أن يراني من الخارج : إنه نظام ملائم جداً من أجل أمن المسكن في زمن المكايد والشِراك هذا . وزجاج منزلي مضاد للرصاص بالطبع ، ومضاد للجراثيم ، ومضاد للإشعاعات وللموجات الصوتية . وهو معطر على الدوام برائحة إبط ومسك تثير فيَّ ـ وأعرف أنها تثير فيَّ أنا وحدي فقط ـ اللذة .

لدي حاسة شم متطورة جداً في أنفي الذي أتلذذ وأتألم منه أكثر من أي موضع آخر . هل يمكنني أن أطلق اسم أنف على هذا العضو الغشائي والضخم الذي يلتقط كل الروائح ، حتى أقلها خفة ؟ إنني أعني الكتلة الرمادية التي تبدأ من مستوى فمي وتنزل إلى أسفل نامية حتى عنقي الذي يشبه عنق ثور . لا ، ليس هذا تضخماً في الغدة الدرقية ، وليس تفاحة آدم متضخمة بفعل خلل في الغدة النخامية . إنه أنفي . وأعرف أنه ليس جميلاً ولا مفيداً ، ذلك أن حساسيته المفرطة تحوله إلى عذاب لا يوصف عندما تتفسخ فأرة في الجوار أو عندما تمر مواد نتنة عبر المواسير التي تخترق منزلي . ولكنني أوقره مع ذلك ، وأفكر أحياناً في أن أنفي هو مستقر روحي .

لست أملك ذراعين ولا ساقين ، ولكن بقايا أطرافي المبتورة ملتئمة ومتيبسة تماماً بحيث يمكنني الزحف على الأرض بسهولة ، بل ويمكنني أن أركض إذا اقتضى الأمر . لم يتمكن أعدائي من النيل مني حتى الآن في أي واحدة من مطارداتهم . أتسألني كيف فقدت ذراعيّ وساقيّ ؟ ربما في حادث عمل ؛ أو ربما كان السبب عقاراً تناولته أمي ليكون حملها سليماً . (فالعلم لا يصيب في كل الحالات مع الأسف) .

عضوي الجنسي سليم لم يصبه أذى . يمكنني أن أمارس الحب بشرط أن يتيح لي الغلام (أو الأنثى) الذي يقوم بدور الشريك أن أتخذ وضعاً مريحاً

بحيث لا تلمس دماملي جسده ، لأنها إذا ما انشقت ينبجس منها القيح النتن وأعاني آلاماً فظيعة . إنني أحب الجماع ، ويمكنني القول إنني شهواني بطريقة ما . صحيح أنني كثيراً ما أعاني الإخفاق أو سرعة القذف المُذلة . ولكنني أحظى في أحيان أخرى بتهيجات طويلة ومتكررة تُشعرني بأنني فضائي ومتألق مثل الملاك جبرائيل . والقرف الذي أبعثه في عشاقي يتحول إلى جاذبية ، بل وإلى هذيان ، بعد أن يتغلبوا ـ بفضل الكحول أو المخدرات في أغلب الأحيان ـ على حذرهم الأولي ويوافقوا على التقلب معي فوق سرير . بل إن النساء يصلن إلى الوقوع في هواي ، والغلمان إلى الولع بقبحي . فالجميلة في أعماق روحها تُفتن بالوحش القبيح دوماً ، مثلما تذكر الكثير من الحكايات والأساطير ، ومن الغريب ألا يعشش في قلب غلام متأنق شيء من الندم . فليس هناك من بين محبيّ من ندم يوماً على أنه أحبني . فهم ، وهن ، يشكرون لي أنني علمتهم كيفية المواءمة الراقية ما بين الرعب والرغبة من أجل تحقيق اللذة . فقد تعلموا معي أنه يمكن لكل شيء أن يكون نافعاً جنسياً ، وأن أخبث وظيفة عضوية ، بما في ذلك وظائف أسفل البطن تلك ، تصبح روحية ونبيلة حين ترتبط بالحب . ورقصة إيقاع أسماء الفاعل ـ متجشئاً ، متبولاً ، متغوطاً ـ التي يرقصونها معي ترافقهم فيما بعد كذكرى كئيبة من الأزمنة الغابرة ، من ذلك النزول إلى القذارة (وهو شيء يغوي الجميع ولكن قلة هم الذين يتجرؤون على اقترافه) الذي مارسوه معي .

أكبر مصادر فخري هو فمي . ليس صحيحاً أنه مفتوح على مصراعيه لأنني أنبح بيأس . إنني أفتحه هكذا لكي أُظهر أسناني البيضاء والحادة . ألا يمكن لأي شخص أن يحسدني عليها ؟ يكاد لا ينقصني سوى اثنين أو ثلاثة منها . أما البقية فهي ثابتة وضارية . إنها قادرة على طحن الحجارة إذا اقتضى

الأمر . ولكنها تفضل أن تروي غليلها من صدور وأرداف إناث العجول ، وأن تنغرس في أضرع وأفخاذ الدجاجات وفي نحور العصافير الصغيرة . فأكل اللحم هو امتياز الآلهة .

لستُ تعيساً ولا أريد أن تشفقوا عليّ . إنني مثلما أنا وهذا يكفيني . ومعرفة أن هناك آخرين أسوأ حالاً هو عزاء عظيم بالطبع . ربما كان الرب موجوداً ، ولكن هل بقي لهذا الأمر أية أهمية مع كل ما جرى ، بعد بلوغ التاريخ هذه الحدود ؟ أيمكن للعالم أن يكون أفضل مما هو عليه ؟ أجل ، ولكن لماذا السؤال عن ذلك ؟ فقد بقيتُ على قيد الحياة ، وأنا أشكّل ، استناداً إلى المظاهر ، جزءاً من الجنس البشري .

انظري جيداً يا حبي . تعرفي عليّ ، تعرفي على نفسك .

« ١٠ »

متدرن وحسي

« كان هناك رجل ملتصق بأنف »[1] ، رتل دون ريغوبيرتو بادئاً طقوس يوم الخميس باستشهاد شعري . وتذكر خوسيه ماريا إغورين ، ذلك الشاعر المهذب الرقيق الذي كان يرى أن كلمة « أنف » مبتذلة صوتياً ، ففرنسها وأوردها ncz في أشعاره .

هل أنفه قبيح جداً ؟ هذا يعتمد على الزجاج الذي يراه من خلاله . إنه مقبب ومعقوف ، دون أي عقد دونية ، وهو فضولي تجاه العالم ، شديد الحساسية ، حُدَيبي وزخرفي . وبالرغم من عناية دون ريغوبيرتو واحتياطاته فقد كانت تُفسده بين حين وآخر مجموعات من الحبيبات الصغيرة ، أما في هذا الأسبوع ، ومن خلال ما تقوله المرآة ، لم تظهر ولا واحدة منها ليضغط عليها ، ويُخرجها ، ويعقم مكانها بعد ذلك بماء الأكسجين . وبسبب نزوة جلدية لا تفسير لها ، يغطي الاحمرار جزءاً كبيراً من أنفه ، خصوصاً في طرفه السفلي ، هناك حيث ينحني ويتكور في نافذتين ، فتظهر بقعة حمراء ، لها لون نبيذ بورغونيا المعتق ، مثل ذلك اللون الذي يكشف السكارى .

---

(١) هذه العبارة هي مطلع قصيدة معروفة للشاعر كيفيدو يسخر بها من معاصره ومنافسه الشاعر لويس دي غونغورا .

ولكن دون ريغوبيرتو يشرب باعتدال ، مثلما يأكل ، بحيث لا يعود هناك حسب علمه ، سبب آخر ممكن لذلك الاحمرار إلا اختلال السيدة الطبيعة وضعف إرادتها . اللهم إلا إذا كان أنفه ـ وانفرج وجه زوج دونيا لوكريثيا عن ابتسامة تمتد من إحدى أذنيه إلى الأخرى ـ يعيش في حياء وهو يتذكر الأشياء الشبقة التي يشمها في الفراش الزوجي . وأحس دون ريغوبيرتو أن فتحتي عضوه التنفسي تتسعان على الفور ، مستبقتين نفحات تلك الإفرازات الجنسية ـ وفكر : «العطور المستحلبة» ـ التي ستنفذ بعد قليل من هناك وتضمخه حتى النخاع . وأحس بالتراخي والامتنان . إلى العمل إذن ، فلكل شيء زمانه ومكانه : ولم يحن بعد وقت الاستنشاقات أيها الوقح .

نف بقوة في منديله ، نف إحدى فتحتي أنفه أولاً ثم الأخرى بعد ذلك ، بينما كانت إصبعه السبابة تسد الفتحة المعاكسة ، إلى أن تأكد من أن أنفه صار نظيفاً من المخاط والسوائل . وعندئذ ، بينما هو يمسك بيسراه العدسة المكبرة التي يستخدمها في استكشاف البطاقات البريدية وصور مجموعته من اللوحات الايروتيكية ، وفي دقائق الاغتسال التفصيلية ، ويحمل في يده اليمنى مقص الأظفار ، بدأ بتحرير أنفه من تلك الشعيرات غير الجمالية التي بدأت رؤوسها السوداء تطل إلى الخارج ، على الرغم من اجتثاثها قبل سبعة أيام فقط . كانت المهمة تتطلب تركيز العمل في زخرفة شرقية للتمكن من تحقيقها بسعادة ودون أن يجرح نفسه . وكانت العملية تبعث في دون ريغوبيرتو سكينة روحية وادعة ، أقل قليلاً من حالة« الخواء والامتلاء » التي يصفها الصوفيون .

إرادته الحديدية في ترويض تعسفات جسده غير المرغوب فيها ، وإجبار هذا الجسد على الوجود ضمن حدود ثابتة يفرضها ذوقه السامي ـ وذوق لوكريتيا بطريقة ما ـ بفضل بعض التقنيات في الاجتثاث ، والقص ،

والطرد ، والسقي ، والدلك ، والحلق ، والتشذيب ، إلى آخره ، والتي توصل إلى إتقانها كحرفي يتقن عمله ، تعزله عن بقية البشر وتبعث فيه هذا الإحساس الاعجازي ـ الذي يصل ذروته عندما يجتمع بزوجته في عتمة المخدع ـ بأنه قد خرج خارج الزمان . بل هو أكثر من إحساس : إنه يقين مادي . لقد كانت خلاياه كلها طليقة في هذه اللحظة ـ تشاس تشاس تصدر عن شفرتي المقص المفضضتين ، تشاس تشاس وتهوي الشعيرات المقصوصة ببطء ، بانعدام وزن ، متأرجحة في الهواء ، تشاس تشاس من أنفه إلى دوامة المغسلة تشاس تشاس ـ ، متوقفة ، متخلصة من التردي ومن عاديات الزمن . هذه هي الفضيلة السحرية للعمل الطقسي والتي كان البشر البدائيون قد اكتشفوها في فجر التاريخ : تحويل المرء ، لبعض اللحظات الأبدية ، إلى كينونة نقية . وكان هو قد أعاد اكتشاف هذه الحكمة على انفراد ، بجهده وعلى حسابه . وفكر : « إنها طريقة الوقف المؤقت للانحدار الدنيء وعبودية الحضارة ، وقناعات القطيع الخسيسة ، من أجل الوصول ، خلال معترضة قصيرة في اليوم ، إلى طبيعة سامية » . وفكر : « هذه سلفة من الخلود » . ولم تبد له الكلمة مبالغاً فيها . وفي هذه اللحظة كان يحس ـ تشاس تشاس ، تشاس تشاس ـ بأنه غير قابل للفساد ؛ وعما قريب ، حين يصير بين ذراعي وساقي زوجته ، سيشعر بأنه ملك . وفكر : « بل إله » .

لقد كانت غرفة الحمام معبداً ؛ المغسلة هي مذبح القرابين ؛ وكان هو نفسه الكاهن الأكبر ، يقيم الصلاة التي تطهره وتخلصه كل ليلة من الحياة . وقال لنفسه : « بعد لحظة سأكون جديراً بلوكريثيا وسأكون معها » . وحدّث أنفه القوي بينما هو يتأمله : « أقول لك إننا ، أنا وأنت ، سنكون بعد قليل في الفردوس يا لصي الطيب » . فاتسعت فتحتاه الشرهتان تتشممان المستقبل . ولكن بدلاً من التقاط الروائح الحميمة لسيدة البيت ، شمّ

الرائحة المعقمة للماء والصابون الذي كان دون ريغوبيرتو يزين به الآن أعماق أنفه المشذبة عن طريق نضح يدوي وحركات رأس حصانية .

مع انتهاء الجزء الحساس من الطقس الأنفي ، استطاع ذهنه أن يهيم من جديد في الخيال وأن يربط فجأة ما بين المخدع الزوجي الوشيك ، حيث تقبع لوكريثيا بانتظاره ، والمؤرخ والكاتب الهولندي جوهان هيزنغا الذي وصلت إحدى مقالاته إلى مكتبه ، وأقنعته بأنها قد كُتبت خصيصاً من أجله ، من أجلها ، من أجلهما . وتساءل دون ريغوبيرتو وهو يغسل أنفه بماء نقي بواسطة قطارة : «أليس سريرنا هو المجال السحري الذي يتحدث عنه الإنسان اللعوب ؟» . أجل ، إنه كذلك مجازياً . فالثقافة حسب قول الهولندي ، وكذلك الحضارة ، والحرب ، والرياضة ، والقانون ، والدين ، قد انبثقت كلها من تلك الأرضية التوافقية ـ مع تفرعات والتفافات ، بعضها سعيد وبعضها خبيث ـ للميل البشري إلى اللعب . إنها نظرية مسلية دون شك ؛ وثاقبة أيضاً ، ولكنها زائفة بالتأكيد . ومع ذلك ، فإن الحياء البشري لم يعمق تلك البديهة العبقرية بتطبيقها في الميدان الذي يؤكدها ، حيث يتضح كل شيء تقريباً بفضل الضوء .

«مجال سحري ، أرض أنثوية ، غابة للحواس» بحث عن عبارات مجازية مناسبة لهذا البلد الصغير الذي تقطنه لوكريثيا في هذه اللحظة . وحسم الأمر : «مملكتي سرير» . كان يغسل يديه ، ويمسحهما . الفراش الفسيح يسمح للزوجين أن يتحركا براحة في هذا الاتجاه أو ذاك ويسمح لهما بالتمدد ، بل والتدحرج بتلقائية وعناق مرح دون خطر الوقوع أرضاً . إنه فراش وثير طري ولكنه مشدود ، نوابضه ثابتة ومستوية بدقة بحيث يمكن للجسدين أن ينزلقا عليه دون أن يجدا أدنى وعورة أو عقبة تتآمر ضد أي رياضة أو وضع أو حركة متهورة أو مزحة خلال الألعاب الغرامية . وارتجل

دون ريغوبيرتو بإلهام : «صومعة الشبق . الفراش–الحديقة حيث تتفتح زهور زوجتي وتلقي خلاصة روائحها السرية إلى هذا المحظوظ الفاني» .

رأى في المرآة كيف بدأت فتحتا أنفه تنبضان مثل شدقين جائعين . «دعيني أستنشقك يا حبي .» وسيشمها ويتنشقها من قدميها حتى رأسها ، بإتقان ومثابرة ، متوقفاً مطولاً في بعض الأجزاء ذات الشذى الخاص ، ومتسرعاً في أجزاء أخرى تافهة ؛ سيفحصها ويحبها أنفياً وهو يسمعها تعترض ما بين ضحكات مكتومة : «آه ، يا حبي ، إنك تدغدغني» . أحس دون ريغوبيرتو بإغماءة جزع عابرة . ولكنه لم يتعجل : من ينتظر لن يخيب أمله . إنه يستعد للاستمتاع بإدراك ومعرفة أكبر .

كان يصل إلى نهايات طقس النظافة عندما صعد إلى أنفه عبير زهر العسل النفاذة ، آتياً من الحديقة ، ومتسرباً من بين فواصل الزجاج . أغمض عينيه واستنشق . إنه عطر مشاغب هذا الذي تفوح به هذه النبتة المتسلقة غير المتماسكة . إنها تبقى أياماً طويلة منغلقة على نفسها ، دون أن تطلق أريجها الأخضر ، وكأنها تكنزه وتكثفه ، وفي لحظات سرية من النهار أو الليل ، بسبب رطوبة الجو ، أو بسبب حركة القمر والنجوم ، أو بسبب كارثة أرضية خفية تحدث في الأعماق ، في باطن الأرض حيث ترقد جذورها ، تُطلق على الدنيا هذه الرائحة الحامضة الحلوة والمشوشة التي تدفع إلى التفكير في نساء سمراوات ، ذوات شعور طويلة متموجة وبرقصات تظهر في أثنائها ، من خلال دوامة التنانير المنفلتة ، أفخاذ صقيلة ، أو إليات مكتنزة ، أو كعوب ملساء ، أو تظهر ، مثل نور كاذب ، خصلة من شعر عانة وارف .

أجل ، الآن ـ كانت عينا دون ريغوبيرتو مغمضتين وكان يبدو وكأن كل طاقاته قد هرعت من بقية أنحاء جسده لتجتمع في جهازي التناسل والشم ـ

تشم فتحتا أنفه زهور عسل دونيا لوكريثيا . وبينما الشذى الفاتر والكثيف ، مع تذكارات مسك ، بخور ، كرنب منقوع ، يانسون ، سمك بالخل ، بنفسج يتفتح ، عرق طفلة عذراء يصعد مثل تضوع نباتي أو حمم كبريتية حتى دماغه ، ويفجره بالشهوة ، كان أنفه ينتقل بحسية ، يمكنه الآن أن يحس كذلك بورقة السرخس المحببة تلك ، بالملمس اللزج لشريحة الشفتين المتوهجتين ، بدغدغة الجزازة المنفوشة الرطبة التي تداعب أوبارها الحريرية فتحتي أنفه فتزيد من تأثير الخدر الرقيق الذي يوفره له جسد حبيبته .

بذل دون ريغوبيرتو جهداً ذهنياً كبيراً ـ كرر نظرية فيثاغورس بصوت عال ـ لكي يوقف وسطياً الانتصاب الذي بدأ يكشف ذلك الرأس المتيم ، ورشه بحفنات من الماء البارد ، فهدأه وأعاده ، منكمشاً ، إلى طيات شرنقته . تأمل بإشفاق القضيب الطري الذي يتدلى من أسفل بطنه ، وقد صار الآن ساكناً ومرناً ، يتأرجح بخفة مثل مطرقة ناقوس . وقال مرة أخرى إنه كان محظوظاً جداً لأنه لم يخطر لأبويه أن يجريا له عملية ختان : فغلفته هي صانعة مجد أحاسيسه البهيجة ، وهو واثق من أنه لو حرم من هذا الغشاء الشفاف ، لكانت لياليه الغرامية أشد فقراً ، ولربما كان ذلك حرماناً خطراً أشبه بعمل سحري يؤدي إلى حرمانه من حاسة الشم .

وتذكر فجأة غريبي الأطوار أولئك الذين يعتبرون شم روائح غريبة وكريهة في نظر العموم هو حاجة حيوية مثل الأكل والشرب دون زيادة ولا نقصان . حاول أن يتخيل الشاعر فريدريك شيللر يغرس أنفه الحساس بنهم في ثمار التفاح المتعفنة التي كانت تلهمه وتهينه للإبداع والحب ، مثلما تفعل الصور الايروتيكية بدون ريغوبيرتو . وانتقلت مخيلته بعد ذلك إلى الوصفة الخاصة المُقلقة لمؤرخ الثورة الفرنسية الأنيق ، ميشيليه ـ وكانت

إحدى نزواته مراقبته حبيبته آثين وهي تحيض ـ الذي كان يهجر المخطوطات والرقوق ومصنفات مكتبه عندما يغلبه التعب واليأس ، لينسل خفية مثل لص إلى مراحيض المنزل . وتخيله دون ريغوبيرتو : بصدرية ، وسترة ذات ذيلين ، وخف ، مقرفصاً ووقوراً أمام مقعد الفضلات ، يستنشق بتلذذ طفولي الأبخرة المتعفنة التي ما إن تصل إلى تلافيف دماغه حتى تعيد إليه الحماس والنشاط ، نضارة الجسد والروح ، الاندفاع الذهني وسخاء الأفكار . وفكر : « كم أنا طبيعي بالمقارنة مع هؤلاء الأصيلين » . ولكنه لم يشعر بأنه أقل همة ولا أدنى مقاماً منهم . فالسعادة التي وجدها في ممارساته الصحية المنفردة ، ووجدها فوق ذلك في حب زوجته ، تبدو له تعويضاً كافياً عن طبيعية حالته . فما حاجته ، وهو يمتلك هذه السعادة ، إلى أن يكون غنياً ، مشهوراً ، غريب الأطوار ، عبقرياً ؟ الظلام المتواضع الذي كانته حياته في عيون الآخرين ، هذه الحياة الروتينية لمدير شركة تأمين ، تخبئ شيئاً ، وهو واثق من ذلك ، قلة من أبناء جنسه هم الذين يستمتعون به ، أو يتصورون أنه موجود : إنه السعادة الممكنة . صحيح أنها عابرة وسرية ، بل وضئيلة ، ولكنها مؤكدة ، ملموسة ، ليلية ، وحية . إنه يحس بها الآن فيما حوله مثل هالة وعما قريب سيكون هو هي ، وستكون السعادة أيضاً هي زوجته معه ومعها ، متحدين في ثالوث عميق للاثنين اللذين هما ، بفضل اللذة ، واحد أو أنهما بكلمة أدق ثلاثة . أتراه توصل بهذا إلى حل سر الثالوث ؟ وابتسم : ليس إلى هذا الحد أيها الخبيث . إنها حكمة ضئيلة وحسب ، مجرد ترياق عابر لمواجهة الإحباطات والمشاكل التي تتبل الحياة . وفكر : « الحمد لله أن الخيال يحث الحياة » .

وعندما اجتاز عتبة غرفة النوم ، تنهد مرتعشاً .

« ١١ »

بعيد الأكل

ـ سأخبرك بشيء لا تعرفينه يا خالتي ـ هتف ألفونسو وفي حدقتيه بريق ضئيل مرتعش ـ . إنك موجودة في لوحة الصالة .

كان وجهه مفتوناً وسعيداً ينتظر ، بما يشبه ابتسامة ماكرة ، أن تحزر هي النية الخفية في ما قاله للتو .

«ها هو ذا يعود طفلاً من جديد » ، هذا ما فكرت به دونيا لوكريثيا من شرنقة خمولها الدافئة التي كانت فيها ، في منتصف الطريق ما بين الأرق والنعاس . منذ لحظات قليلة كان رجلاً صغيراً دون أحكام مسبقة ، وبغريزة صائبة ، يمتطيها مثل فارس ماهر . وها هو الآن يعود طفلاً سعيداً من جديد ، يتسلى بلعبة الأحاجي مع أمه بالتبني . كان عارياً ، يثني ركبتيه ويجلس على كعبيه عند نهاية السرير ولم تستطع هي أن تقاوم إغراء مد يدها ووضعها فوق ذلك الفخذ الأشقر الذي بلون العسل ، ذي الزغب الذي لا يكاد يكون مرئياً واللامع بالعرق . وفكرت : «لا بد أن آلهة الإغريق كانوا هكذا ، وكذلك الآمورات الصغار في اللوحات ، وغلمان الأميرات ، والجنيين الصغار في ألف ليلة وليلة ، و«السبينتريا » في كتاب سويتونيو[1] . غرست

(١) سويتونيو Suetonio ، مؤرخ لاتيني ، مؤلف كتاب سير بعنوان « حيوات الاثني عشر قيصراً » .

أصابعها في هذا اللحم الفتي والإسفنجي وفكرت ، وهي تحس برعشة متهتكة : «أنتِ سعيدة مثل ملكة يا لوكريثيا» .

ثم تمتمت دون رغبة :

ـ ولكن لوحة الصالة للرسام زيزلو . إنها لوحة تجريدية أيها الصغير .

فأطلق الفونسو قهقهة .

ـ ولكنها أنت ـ قال مؤكداً . ثم احمر فجأة بحمرة الخجل حتى أذنيه ، وكأن تياراً شمسياً جارفاً قد سخنه ـ لقد اكتشفتُ الأمر هذا الصباح يا خالتي . ولكنني لن أخبرك كيف ذلك ولو قتلتني .

وداهمته نوبة ضحك أخرى وهوى على وجهه فوق السرير . بقي على تلك الحال طويلاً ، وجهه غارق في الوسادة ، مرتجفاً من القهقهة . «ما الذي دخل في هذا الرأس الصغير المجنون» ، همست دونيا لوكريثيا وهي تشعث شعره الناعم مثل رمل دقيق أو طحين الرز . «إنها فكرة بذيئة أيها الخبيث ، فقد اصطبغتَ بالحمرة» .

كانا قد أمضيا الليلة معاً للمرة الأولى ، منتهزين فرصة سفر دون ريغوبيرتو في واحدة من رحلات عمله السريعة إلى الأقاليم . وكانت دونيا لوكريثيا قد منحت إجازة لكل الخدم في الليلة السابقة ، بحيث بقيا وحدهما في البيت . وفي العشية ، بعد أن تناولا الطعام معاً وشاهدا التلفزيون بانتظار انصراف خوستينيانا والطاهية ، صعدا إلى غرفة النوم ومارسا الحب قبل أن يناما . ثم مارساه مجدداً عندما استيقظا ، قبل وقت قصير ، مع أول أضواء الفجر . وفيما وراء ستارة النافذة الخشبية التي لها لون الشيكولاتة ، كان النهار ينمو بسرعة . وكانت قد بدأت تتعالى ضجة الناس والسيارات في الشارع . وعما قريب سيرجع الخدم . تمطت دونيا لوكريثيا بخمول . سيتناولان فطوراً وافراً ، مع عصير فواكه وبيض مقلي . وفي منتصف النهار

ستذهب هي وألفونسيتو إلى المطار لاستقبال زوجها . لم يكن دون ريغوبيرتو يطلب ذلك أبداً ، ولكنهما يعرفان أنه يبتهج لرؤيتهما يحييانه ملوحين بأيديهما المرفوعة وهو ينزل من الطائرة . وهما يمنحانه هذه المتعة كلما استطاعا ذلك .

وقال الطفل متأملاً دون أن يكون قد رفع وجهه عن الوسادة :

ـ لقد أصبحتُ أعرف الآن ما الذي تعنيه لوحة تجريدية . إنها لوحة بذيئة! لم أكن أنتبه إلى ذلك يا خالتي .

مالت دونيا لوكريثيا ، ودنت منه . أسندت خدها على ظهره الصقيل ، الخالي من أي قطرة شحم ، واللامع كالجليد ، حيث العمود الفقري الذي مثل سلسلة جبلية دقيقة ، لا يكاد يُرى . أغمضت عينيها وبدا لها أنها تسمع حركة الدم البطيئة المبكرة تحت هذه البشرة المرنة . ففكرت مبهورة : «هذه هي الحياة نابضة ، الحياة معيشة» .

منذ أن مارست الحب مع الطفل أول مرة ، فقدت كل الهواجس وذلك الإحساس بالذنب الذي كان يعذبها كثيراً في السابق . حدث ذلك في اليوم التالي لواقعة رسالة تهديداته بالانتحار . وكان أمراً غير متوقع يخيل لدونيا لوكريثيا ، حين تتذكره ، أنه مستحيل ، وأنه شيء لم تعشه وإنما حلمت به أو قرأته . كان دون ريغوبيرتو قد أغلق على نفسه غرفة الحمام للتو من أجل طقوس النظافة الليلية ، فنزلت هي بقميص النوم والروب البيتي لتتمنى لألفونسيتو ليلة سعيدة ، مثلما كانت قد وعدته . قفز الطفل عن السرير لاستقبالها . وبينما هو متعلق بعنقها ، بحث عن شفتيها وداعب نهديها بحياء ، بينما هما يسمعان ، فوق رأسيهما ، ومثل خلفية موسيقية ، صوت دون ريغوبيرتو يدندن دون انسجام أغنية من إحدى المسرحيات بتوافق مع تدفق الماء في المغسلة . وفجأة أحست دونيا لوكريثيا بشيء مندفع ،

ذكري ، يلامس جسدها . وكانت النشوة التي لا يمكن كبحها أقوى من إحساسها بالخطر . فأسلمت نفسها للانزلاق على السرير في الوقت الذي راحت تجذب فيه الصغير نحوها ، دون خشونة ، وكأنها تخشى أن تكسره . فتحت الروب وأزاحت قميص النوم ، وراحت ترتب وضعه فوقها وتقوده بيد جزعة . كانت قد أحست به يجدّ ، يلهث ، يقبلها ، يتحرك ، بخراقة وهشاشة مثل حيوان صغير يتعلم المشي . وأحست به بعد قليل يتأوه ، وينتهي .

عندما رجعت إلى مخدعها لم يكن اغتسال دون ريغوبيرتو قد انتهى . كان قلب دونيا لوكريثيا طبلاً جامحاً ، عَدْواً أعمى . وكانت مذهولة من تهورها ومتلهفة - وهي لا تكاد تصدق ذلك - إلى عناق زوجها . لقد كان حبها له قد تضاعف . وكانت صورة الطفل هناك أيضاً ، في ذاكرتها ، تبعث فيها الرقة والحنان . هل من الممكن أن تكون قد مارست الحب معه وستمارسه الآن مع أبيه ؟ أجل ، إنه ممكن . لم تكن تشعر بالندم ولا بالخجل . ولم تكن تعتبر نفسها متهتكة كذلك . كانت تحس وكأن الدنيا تنثني عليها بوداعة . وتلبّسها إحساس غير مفهوم بالزهو . وسمعت دون ريغوبيرتو يقول لها فيما بعد : «لقد استمتعت هذه الليلة أكثر من ليلة أمس ومن أي ليلة أخرى . لا أعرف كيف أشكرك على السعادة التي تمنحينني إياها .» وهمست دونيا لوكريثيا مرتعشة : «وأنا كذلك يا حبي» .

منذ تلك الليلة أيقنت أن اللقاءات السرية مع الطفل تغني بطريقة غامضة وملتوية ، يصعب شرحها ، علاقتها الزوجية ، وتجعلها تنتفض وتتجدد . ولكن ، أي أخلاق هي هذه يا لوكريثيا ؟ ، كانت تتساءل مذعورة . كيف أمكن لك أن تتحولي هكذا بين ليلة وضحاها ، وأنت في هذه السن ؟ لم تكن قادرة على فهم ذلك ، ولكنها لم تبذل جهداً كذلك من أجل الفهم . كانت

تفضل الاستسلام لهذا الوضع المتناقض ، حيث أفعالها تتحدى وتنتهك مبادئها في سبيل ذلك التهيج الزخم والمجازف الذي تحول إلى سعادة بالنسبة إليها . وفي صباح أحد الأيام ، عندما فتحت عينيها ، خطرت لها هذه الجملة : «لقد اقتحمت السيادة» . أحست بالسعادة وبالانعتاق ، ولكنها لم تستطع أن تحدد مم انعتقت .

« ربما لا أشعر بأنني أقوم بعمل خبيث لأن فونتشيتو لا يشعر بذلك أيضاً » ، وفكرت وهي تداعب جسد الطفل بأطراف أصابعها . «الأمر بالنسبة له مجرد لعبة ، شقاوة . وهذا هو ما نفعله وحسب . إنه ليس عشيقي . وكيف يمكن له أن يكون كذلك وهو في هذه السن ؟ » ماذا يكون إذن ؟ إنه آمورها ، قالت . إنه «السبينتريا» . إنه الطفل الذي كان رسامو عصر النهضة يضيفونه إلى مشاهد مخادع النوم لكي تبدو المعركة الغرامية أشد احتداماً على خلفية الطهارة تلك . وفكرت وهي تقبله من رقبته بطرف شفتيها : «بفضلك أنت صار حبنا واستمتاعنا أنا وريغوبيرتو أكبر» .

ـ يمكنني أن أوضح لك لماذا تمثل تلك اللوحة صورتك ، ولكنني أشعر بشيء لا أدري ما هو ـ همس الطفل وهو ما يزال مدفوناً في الوسادة ـ أتريدين أن أشرح لك ذلك يا خالتي ؟

ـ أجل ، أجل ، أرجوك ـ وكانت دونيا لوكريثيا تتفحص بورع الأوردة الدقيقة التي تظهر في أنحاء من بشرته كأنها جداول زرقاء . ـ كيف يمكن أن تكون صورتي في لوحة لا توجد فيها صور ، وإنما أشكال هندسية وألوان ؟

رفع الطفل وجهه الساخر :

ـ فكري وسترين . تذكري كيف هي اللوحة وكيف أنت . لا أصدق أنك لم تكشفي الأمر . إنه سهل جداً! احزري وسأعطيك جائزة يا خالتي .

فسألت دونيا لوكريثيا وهي تزداد تورطاً :

ـ ألم تنتبه إلا في هذا الصباح إلى أن هذه اللوحة هي صورتي ؟

وصفق لها الطفل :

ـ حامي ، حامي . إذا واصلت في هذا الطريق فستكتشفين الأمر الآن . آي ، يا للخجل يا خالتي!

أطلق قهقهة أخرى وعاد إلى الاختباء ما بين الملاءات . حط عصفور على حافة النافذة وراح يزقزق . كان صوتاً صاراً وبهيجاً يطعن الصباح ويبدو كأنه يحتفل بالدنيا ، بالحياة . وفكرت دونيا لوكريثيا : «معك حق في أن تكون سعيداً . فالدنيا بديعة والحياة تستحق أن تعاش فيها يا أيها المزقزق» .

ـ إنها صورتك السرية ـ غمغم ألفونسيتو . وكان يتهجى كل كلمة مع توقفات سرية ، بحثاً عن تأثير مسرحي ـ صورة ما لا يعرفه ولا يراه أحد فيك . إلا أنا فقط . آه ، وأبي بالطبع . إذا أنت لم تحزري الآن فلن تحزري أبداً يا خالتي .

أخرج لها لسانه وأومأ باحتيال بينما هو يتفحصها بنظرته الزرقاء السائلة تحت سطحها الزجاجي البريء ، وكان يبدو لدونيا لوكريثيا أحياناً أنها تلمح شيئاً خبيثاً ، مثل تلك الوحوش اللمسية التي تمضي في أعماق الفراديس الأقيانوسية . تأجج خداها . هل يُلمّح فونتشيتو حقاً إلى ما تخيلتْهُ للتو ؟ أو بكلمة أخرى ، هل يفهم الطفل تلك الأشياء التي يلمح إليها ؟ لا شك أنه يفهمها وسطياً فقط ، بصورة مشوهة ، غريزية ، ولا يتوصل إلى حقيقتها . هل الطفولة هي هذا الخليط من الرذيلة والفضيلة ، من القداسة والخطيئة ؟ وحاولت أن تتذكر إذا ما كانت هي ، في زمن ناء ، مثل فونتشيتو ، نظيفة وقذرة في الوقت نفسه ، ولكنها لم تستطع . أراحت خدها

من جديد على ظهر الطفل الأشقر وحسدته . آه ، من يمكنه أن يتصرف دوماً بشبه الوعي الحيواني هذا الذي يداعبها ويحبها به ، دون أن يدينها أو يدين نفسه! وتمنت له : «آمل ألا تتألم عندما تكبر أيها الصغير» .

ثم قالت بعد لحظة :

ـ أظن أنني قد حزرت . ولكنني لا أجرؤ على قول ذلك لك ، لأنه بذيء جداً بالفعل يا ألفونسيتو .

فوافق الطفل بحياء وقد عاوده تورد الخجل :

ـ إنه بذيء بالطبع . ومع أنه كذلك ، إلا أنه الحقيقة يا خالتي . وأنت هكذا أيضاً ، وهذا ليس ذنبي . ولكن ، ليس مهماً ما دام لن يعرف ذلك أحد ، أليس كذلك ؟

وأضاف دون وقفة انتقاليه ، في واحدة من تلك التحولات المفاجئة في النبرة وفي الموضوع التي يبدو فيها وكأنه يصعد أو ينزل دفعة واحدة عدة درجات من سلّم الحياة :

ـ ألا يكون الوقت قد حان للذهاب إلى المطار من أجل إحضار أبي ؟ سيحزن كثيراً إذا نحن لم نذهب .

ما حدث بينهما لم يكن له أدنى تأثير ـ أو أنها على الأقل لم تلحظ ذلك ـ على علاقة ألفونسو بدون ريغوبيرتو ؛ وكان يبدو لدونيا لوكريثيا من خلال مظاهر الألفة ، أن الطفل يحب أباه مثلما كان يحبه من قبل وربما أكثر . ولم يكن يبدي أمامه كذلك أدنى قدر من الضيق أو تأنيب الضمير . وقالت لنفسها : «لا يمكن أن تكون الأمور بهذه البساطة وأن ينتهي كل شيء على خير» . ولكن الأمور كانت تسير على ما يرام حتى الآن على الأقل . كم من الوقت سيستمر هذا الوهم الهارموني ؟ وعادت تقول لنفسها مرة أخرى إنه إذا ما تصرفت بذكاء وحذر فلن يحدث ما يمكن له أن يمزق

الوهم المتجسد الذي تحولت إليه حياتها . وكانت واثقة فوق ذلك من أنه في حال استمرار هذا الوضع المعقد ، فإن دون ريغوبيرتو سيكون المستفيد السعيد من سعادتها . ولكن ، ومثلما يحدث كلما فكرت في الأمر ، كانت هواجسها تلقي بظل قاتم على هذه اليوتوبيا : الأمور لا تجري على ما يرام إلا في السينما وفي الروايات يا امرأة . كوني واقعية ؛ فعاجلاً أو آجلاً سينتهي كل شيء إلى أسوأ حال . فالواقع لم يكن في يوم من الأيام كاملاً مثل الخيال يا لوكريثيا .

ـ لا ، مازال لدينا متسع من الوقت يا حبي . هناك ساعتان على موعد وصول الطائرة من بيورا . هذا إذا لم تتأخر .

ـ سأنام قليلاً إذن ، كم أشعر بالوهن ـ تثاءب الطفل . ومال على جانبه باحثاً عن دفء جسد دونيا لوكريثيا ، وأسند رأسه إلى كتفها . ثم خرخر بعد لحظة بصوت منطفئ : ـ هل تظنين أن أبي سيشتري لي الدراجة النارية التي طلبتها منه إذا ما نلت جائزة التفوق في نهاية العام ؟

فردت عليه وهي تضمه بحساسية وتهدل له كما لطفل حديث الولادة :

ـ أجل سيشتريها لك . وإذا هو لم يشترها ، فسأفعل أنا ذلك ؛ هذا وعد .

وبينما فونتشيتو ينام متنفساً بانتظام ـ كان بإمكانها أن تشعر بضربات قلبه المتناسقة مثل أصداء في جسدها ـ ، بقيت دونيا لوكريثيا جامدة دون حراك كيلا توقظه ، غارقة في وسن ساكن . وكان ذهنها المنفلت يجول ما بين جوقات من الصور . ولكن إحدى تلك الصور كانت تكتسب من وقت لآخر قوة وتتثبت في هالة وعيها الإيحائية : إنها لوحة الصالة . ما قاله الطفل يقلقها بعض الشيء ويملؤها بغم سري ، إذ أنها تلمح في تلك المخيلة الطفولية أعماقاً وبيلة ودقة مثيرة للريبة .

فيما بعد ، وبعد أن استيقظا وتناولا الفطور ، وبينما كان ألفونسيتو يستحم ، نزلت إلى الصالة ووقفت تتأمل لوحة زيزلو طويلاً . كانت تشعر وكأنها لم ترها من قبل ، وكما لو أن اللوحة ، مثل أفعى أو فراشة ، قد بدلت مظهرها وكيانها . وفكرت مشوشة : «هذا الطفل شيء جدي» . وفي تلك الليلة بالذات ، بعد إحضار دون ريغوبيرتو من المطار ، وبعد الاستماع إلى حديثه عن رحلته ، فتحوا الهدايا التي أحضرها لها وللطفل واحتفلوا بها (وهو يحضر لهما هدايا كلما سافر) . كان قد أحضر أصنافاً من الحلوى وقبعتي قش فاخرتين من كاتاكاوس . وبعد ذلك تناول الثلاثة عشاءهم معاً كأسرة سعيدة .

انسحب الزوجان إلى مخدعهما في وقت مبكر . وكانت اغتسالات دون ريغوبيرتو أقصر من المعتاد . وعندما التقيا مجدداً في الفراش ، تعانق الزوجان بحرارة ، وكأنهما يلتقيان بعد فراق طويل جداً (فراقهما لم يكد يتجاوز ثلاثة نهارات وليلتين) . إنهما هكذا دوماً ، مذ تزوجا . ولكن ، بعد تبادل الكلمات والمداعبات التمهيدية في الظلام ، وعندما همس دون ريغوبيرتو الوفي للطقوس الليلة التخيلية : «ألن تسأليني من أكون ؟» سمع في هذه المرة جواباً يتعدى الاتفاق الضمني : «لا . من الأفضل أن تسألني أنت» . كانت هناك وقفة ذهول ، مثل تجمد لقطة في فيلم . ولكن ، بعد ثوان من ذلك ، فهم دون ريغوبيرتو ، رجل الطقوس الآمر ، وسألها : «من ، من أنتِ يا سمائي ؟» . «أنا شخصية لوحة الصالة... اللوحة التجريدية» ، ردت عليه . وكانت هناك وقفة أخرى ، وضحكة خافتة ما بين ساخطة وخائبة ، وصمت طويل مكهرب . وبدأ هو يوبخها : «ليس هذا وقت للـ...» . فقاطعته دونيا لوكريثا وهي تغلق فمه بشفتيها : «لستُ أمزح . إنني تلك اللوحة ، ولستُ أدري كيف لم تنتبه إلى ذلك حتى الآن .» فتحمس

هو ، واستعاد حيويته ، وتحرك : «ساعديني يا حبي . اشرحي لي . أريد أن أفهم .» وشرحت له وفهم .

وبعد مرور وقت طويل ، عندما كانا منهوكين وسعيدين ومستعدين للراحة ، بعد أن تحدثا وضحكا ، قبّل دون ريغوبيرتو يد زوجته متأثراً :

- كم تبدلتِ يا لوكريثيا . لم أعد أحبك الآن من كل روحي وحسب ، بل صرت أقدرك أيضاً . وأنا واثق من أنني سأتعلم الكثير منك .

فقالت وهي تداعبه :

- في الأربعين يمكن تعلم أشياء كثيرة . أشعر أحيانا ، الآن مثلاً ، بأنني أولد من جديد يا ريغوبيرتو . وأنني لن أموت أبداً .

أهذه هي السيادة ؟

« ١٢ »

متاهة حب[1]

في البدء لن تراني ولن تفهم ، ولكن عليك التحلي بالصبر ومواصلة النظر . انظر بمثابرة ودون أحكام مسبقة... بحرية وبرغبة . انظر بمخيلة منطلقة وبعضو مهيأ سلفاً ـ وحبذا لو كان مثل رمح ـ . فالدخول هناك يتم مثلما تدخل مستجدة إلى الدير أو مثلما يدخل العشيق إلى مغارة المحبوبة : بصورة حاسمة ودون حسابات بائسة ، مانحاً كل شيء ومطالباً بكل شيء ، وبيقين في أعماق الروح بأن ذلك الدخول أبدي . بهذا الشرط وحده يبدأ سطح القتامات البنفسجية والليّلكية بالتحرك شيئاً فشيئاً ، يتموج ، يكتسي مغزى ، وينكشف مثلما هو في الحقيقة : إنه متاهة حب .

الشكل الهندسي للحزام الأوسط ، في منتصف اللوحة بالضبط ، هذا الظل المسطح الذي يشبه حيواناً سميك الجلد ذا ثلاث قوائم هو مذبح ، منصة قربان ، أو أنه ديكور مسرحي إذا ما كنتَ ذا روح تتحسس من الرموز الدينية . لقد انتهى للتو أداء طقس مثير ، ارتدادات لذيذة وقاسية . وما تراه هي بقاياه ونتائجه . أنا أعرف ذلك لأنني كنت الأضحية السعيدة ؛

---

(١) راجع اللوحة رقم (٥)

وكنتُ كذلك الملهمة ، الممثلة . هذه اللطخات الحمراء على قوائم الكائن الطوفاني هي دمي ومنيك يسيلانِ ويتجمدان . أجل يا حياتي ، ذاك الشيء القابع فوق حجر الطقوس (أو إذا أنت شئت ، فوق الديكور ما قبل الإسباني)[٢] ، هذا الشكل اللزج من قروح ذات لون خبازي وأغشية رقيقة ، من تجويفات سوداء وغدد تتقيح لوناً رمادياً ، هي أنا بالذات . افهمني : إنها أنا مرئية من الداخل ومن أسفل ، عندما تكلّسني وتعصرني . إنها أنا ، أثور بركاناً وأسيل تحت نظرتك المتيقظة الداعرة كذكر أقام احتفاله الديني وهو الآن يتأمل ويفلسف .

لأنك أنت موجود أيضاً أيها الغالي . تنظر إلي وكأنك تشرحني ، إنك عينان تنظران لترِيا وعقل خيميائي يدرس ويحلل وصفات اللذة المتألقة . فمن هو إلى اليسار ، منتصباً وراء قشرة بنية لامعة ، من يضع هلالين على رأسه ، ويتزين بعباءة من ريش حي ، ويتنكر في طوطم ، هذا الشكل ذي الزوائد والزغب الأشقر الضارب إلى الحمرة ، هذا الذي يدير ظهره ويتفحصني ، من يمكن له أن يكون إلا أنت ؟ لقد نهضتَ للتو وانقلبت إلى متفرج . وكنتَ قبل لحظة أعمى وجاثياً بين فخذي ، تشعل نيراني مثل خادم وضيع ونشيط . أنت تعرف الآن كيف أنا . ويروق لك الآن أن تصوغني في نظرية .

أنحن مستهتران ؟ إننا بالأحرى تامان وحران... دنيويان إلى أقصى الحدود . لقد سلخوا جلدنا وليّنوا عظامنا ، كشفوا أحشاءنا وغضاريفنا ، وعرضوا للضوء كل ما ظهر ونما وتعرق وأُفرز في القداس أو الطقس الغرامي الذي قدمناه معاً . لقد خلّفونا دون أسرار يا حبي . هذه هي أنا يا عبدي

(٢) يبدو واضحاً هنا أنها تشير إلى طقوس القرابين البشرية التي كانت سائدة في بعض الحضارات الأمريكية ما قبل الكولومبية .

وسيدي ، قربانك . إنني مشقوقة من أعلى إلى أسفل بسكين الحب مثل يمامة . مشقوقة ونابضة أنا . استمناء بطيء أنا . دفقة رحيق أنا . متاهة وحسّ أنا ، مبيض سحري أنا ، دم وندى فجر : أنا . هذا هو وجهي بالنسبة إليك في ساعة الحواس . هذه هي أنا عندما أنزع ، من أجلك ، جلدي يومياً وفي أيام الأعياد . وربما هذه هي روحي . إليك ومنك .

لقد توقف الزمن بالطبع . وهناك لا نشيخ ولا نموت . سنستمتع إلى الأبد في ضوء الغسق الخافت هذا الذي يهتكه الليل ، مضاءين بقمر جعله سُكرنا ثلاثة . القمر الحقيقي هو الذي في الوسط ، داكن مثل جناح غراب ؛ أما القمران الآخران فيحرسانه ، ولهما لون النبيذ العكر ، وهما قمران خياليان .

لقد أُلغيت كذلك الأحاسيس الغيرية ، والماورائية ، والتاريخ ، والتفكير الحيادي ، ودوافع وأعمال الخير ، والتضامن مع الأجناس ، والمثالية المدنية ، والتعاطف مع المثيل ؛ لقد محي جميع البشر الذين هم سواك وسواي . لقد اختفى كل ما كان يمكن له أن يلهينا أو يُفقرنا في ساعة الأنانية العليا التي هي ساعة الحب . ليس هناك ما يكبحنا أو يردعنا ، مثل المسخ أو الإله .

هذا الحيز الثلاثي ـ ثلاث قوائم ، ثلاثة أقمار ، ثلاث مساحات ، ثلاث نوافذ وثلاثة ألوان مهيمنة ـ هو وطن الغريزة الصافية والمخيلة التي تخدمه ، هكذا مثلما خدمنى لسانك الأفعواني ولعابك العذب واستخدماني . لقد فقدنا الكنية والاسم ، الوجه والشعر ، المظهر المحترم والحقوق المدنية . ولكننا كسبنا السحر والسر واللذة الجسدية . كنا امرأة ورجل وصرنا الآن قذفاً ، وشهوة ، وفكرة ثابتة . لقد تحولنا إلى مقدسين وهاجسين .

معرفتنا المتبادلة تامة . فأنت أنا وأنت ، وأنا أنا وأنت . شيء متقن الكمال مثل سنونوة أو مثل قانون الجاذبية . الضلال المعيب ـ وأقول هذا

بكلمات لا نؤمن بها ونحتقرها كلانا ـ يتمثل في أبراج المراقبة الاستعراضية الثلاثة هذه التي في الزاوية العليا اليسارية . إنها عيوننا ، التأمل الذي نمارسه بحماس شديد ـ مثلما تفعل أنت الآن ـ ، التعري الجوهري الذي يطلبه كل منا من الآخر في الحفلة الغرامية وهذا الاندماج الذي لا يمكن التعبير عنه إلا بترضيض اللغة : أنا أسلمك نفسي لي ، نمصكّني .

دعك الآن من النظر . أغمض الآن عينيك . ودون أن تفتحهما ، انظر إلي الآن أنظر إليك مثلما مثلونا في هذه اللوحة التي ينظر إليها كثيرون ولا يراها إلا قلة . الآن تعرف أننا ، حتى قبل أن نتعارف ، كنا متحابين ومتزوجين ، فأحدهم ، وفي يده ريشة ، استبق المجد المريع الذي ستحولنا إليه السعادة التي استطعنا ابتداعها في كل يوم وكل ليلة غد .

« ١٣ »

الكلمات البذيئة

ـ هل الخالة غير موجودة ؟ ـ سأل فونتشيتو بخيبة أمل .

ـ لن تتأخر في المجيء ـ رد عليه دون ريغوبيرتو وهو يغلق بتعجل كتاب «لوحات التعري» للسير كنيث كلارك الذي كان على ركبتيه . ويعود بحركة مفاجئة فظة إلى ليما ، إلى بيته ، إلى مكتبه ، منتقلاً من الأبخرة الرطبة والأنثوية في ازدحام « الحمام التركي » للرسام إنغر الذي كان مستغرقاً فيه . وأضاف : ـ لقد ذهبتْ للعب البريدج مع صديقاتها . أدخل ، أدخل يا فونتشيتو . فلنتحدث قليلاً .

ابتسم له الطفل موافقاً . دخل وجلس على حافة المقعد الإنكليزي الضخم والمريح ذي الجلد الزيتوني ، تحت الثلاثة والعشرين مجلداً من مجموعة « Les maâtres de l'amour » «سادة الحب» ، التي أشرف عليها وقدم لها غييوم أبولينير .

ـ حدثني عن مدرسة سانتا ماريا ـ شجعه أبوه ، بينما كان في الوقت نفسه يخبئ الكتاب بجسده وهو ماض لإعادته إلى الخزانة ذات الباب الزجاجي والقفل ، حيث يحتفظ بكنوزه الايروتيكية ، وتابع قائلا : ـ هل تسير الدراسة على ما يرام ؟ ألا تجد صعوبة في اللغة الإنكليزية ؟

الدروس تمضي على خير ما يرام والأساتذة جيدون جداً يا بابا . إنه يفهم كل شيء ويتبادل أحاديث مطولة بالإنكليزية مع الأب ماك كي ؛ وهو واثق من أنه سيحقق المرتبة الأولى في صفه هذه السنة أيضاً . وربما سيمنحونه جائزة الامتياز .

ابتسم له دون ريغوبيرتو راضياً . الحقيقة أن هذا الصبي لا يتوانى عن تقديم السعادات له . إنه ابن نموذجي ؛ تلميذ جيد ، وديع ، حنون . لقد حالفه الحظ به .

ـ أتريد كوكا كولا ؟ ـ سأله الأب . وكان قد انتهى من سكب قدر إصبعين من الويسكي لنفسه وأضاف إليه الثلج . قدم إلى ألفونسو كأس المرطب وجلس إلى جانبه ـ أريد أن أقول لك شيئاً يا بني . إنني سعيد بك جداً ويمكنك أن تعتبر أنك قد حصلت على الدراجة النارية التي طلبتها مني . ستحصل عليها الأسبوع القادم .

شَعَّت عينا الطفل . وبدت على وجهه ابتسامة فرح عريضة .

ـ شكراً يا بابا ـ عانقه وقبله من خده ـ الدراجة النارية التي طالما رغبت بها! يا للروعة يا بابا!

أبعده دون ريغوبيرتو عنه وهو يضحك . رتب له شعره المشعث بمداعبة وقورة . وقال :

ـ عليك أن تشكر لوكريثيا . فهي التي ألحت لكي أشتري لك الدراجة الآن بالذات ، دون الانتظار حتى الامتحانات .

فهتف الطفل :

ـ كنت أعرف ذلك . إنها طيبة جداً معي . بل إنها أطيب على ما أظن مما كانته أمي .

ـ خالتك تحبك كثيراً يا صغيري .

فأكد الطفل على الفور بحمية :

ـ وأنا أيضاً أحبها . وكيف لا أحبها وهي أفضل خالة في الدنيا!

شرب دون ريغوبيرتو الويسكي وتذوقه : نار لذيذة جابت لسانه ، حنجرته ونزلت الآن ما بين أضلاعه . وارتجل : «لطيف» . لمن جاء ابنه جميلاً إلى هذا الحد ؟ وجهه يبدو محاطاً بهالة مشعة وينضح بالطزاجة والصحة . الصحيح أنه لم يأتِ له . ولا لأمه كذلك ، لأن إيلويسا ، رغم أنها كانت جذابة وذات مظهر جيد ، إلا أنها لم تمتلك على الإطلاق هذه الدقة في التقاطيع ، ولا عينين بمثل هذه الزرقة ولا شفافية في البشرة مشابهة ولا تجعدات الذهب الصافي في الشعر هذه . إنه ملاك كروبين ، برعم ورد ، ملاك في رسم يمثل المناولة الأولى . سيكون من الأفضل له عندما يكبر أن يقبح قليلاً : فالنساء لا يروقهن الرجال الذين لهم وجوه الدمى .

وأضاف قائلاً بعد لحظة :

ـ أنت لا تعرف كم يسعدني أن تكون على وئام مع لوكريثيا . لقد كان هذا الأمر يخيفني كثيراً عندما تزوجنا ، ويمكنني الآن أن أخبرك بذلك . كنت أخشى ألا يميل كل منكما إلى الآخر ، وأن لا تتقبلها أنت . لو حدث ذلك لكان كارثة كبيرة لنا نحن الثلاثة . ولوكريثيا أيضاً كانت خائفة جداً . أما الآن ، عندما أرى كيف تتفاهمان ، فإنني أضحك من تلك المخاوف . فأنتما متحابان إلى حد أنني أشعر في بعض اللحظات بالغيرة ، إذ يبدو لي أن خالتك تحبك أكثر مما تحبني وأنك أنت أيضاً تفضلها على أبيك .

ضحك ألفونسو مقهقهاً وهو يضرب كفاً بكف ، وحاكاه دون ريغوبيرتو مبتهجاً بانفجار طيب مزاج ابنه . سُمع مواء قط من بعيد . مرت سيارة في الشارع ومذياعها يلعلع بأعلى صوت ، وسُمعت لثوان أنغام بوق وماراكا في

لحن تروبيكالي . ثم سُمع صوت خوستينيانا تترنم في غرفة الغسل بينما هي تُشغّل الغسالة .

وفجأة سأل الطفل أباه :

ـ ما معنى رعشة الجماع يا بابا ؟

وداهمت دون ريغوبيرتو نوبة سعال . ثم تنحنح بينما هو يفكر : ماذا يجب أن أرد عليه ؟ حاول أن يتخذ وضعاً طبيعياً وبقي دون ابتسام . وأوضح بحذر :

ـ حسن ، ليست كلمة بذيئة . إنها ليست كذلك بالتأكيد . إنها كلمة مرتبطة بالحياة الجنسية ، باللذة . وربما يمكن القول إنها ذروة اللذة الجسدية . وهو شيء لا يعرفه البشر فقط ، وإنما أجناس حيوانية كثيرة . سيحدثونك عن ذلك في دروس البيولوجيا بكل تأكيد . ولكن عليك ألا تفكر بأنها بذاءة . أين وجدت هذه الكلمة يا صغيري ؟

ـ سمعتها من خالتي ـ قال فونتشيتو . ثم قام بحركة خبيثة جداً ، رافعاً إصبعه إلى شفتيه كإيماءة تواطؤ ، وأضاف : ـ تظاهرتُ بأنني أعرف معناها . فلا تخبرها بأنك شرحتها لي يا بابا .

ـ لا ، لن أخبرها ـ تلعثم دون ريغوبيرتو . وتناول رشفة أخرى من الويسكي وأمعن النظر في ألفونسو وهو مبهور . ماذا هناك في هذا الرأس الصغير الأشقر ، وراء هذه الجبهة اللامعة ؟ من يمكنه أن يعرف ذلك . ألا يقولون إن روح الطفل هي بئر بلا قرار ؟ وفكر : « يجب أن أغير موضوع الحديث » . ولكن داء الفضول أو جاذبية الخطر الغريزية كانت أقوى ، فسأل كمن هو غير راغب في الأمر : ـ أسمعت هذه الكلمة من خالتك حقاً ؟ هل أنت متأكد ؟

هز الطفل رأسه عدة مرات ، بالتعبير ما بين الباسم والخبيث نفسه . كان خداه متوردين بالحمرة وعيناه تعكسان الظرافة .

ـ لقد قالت لي إنها بلغت رعشة جماع لذيذة ـ أوضح بصوت بلبل مترنم .

في هذه المرة أُفلت الويسكي من يدي دون ريغوبيرتو ؛ وبينما هو مشلول من وقع المفاجأة ، رأى الكأس يتدحرج على سجادة مكتبه ذات النقوش العربية . سارع الطفل إلى التقاط الكأس . وأعاده متمتماً :

ـ لحسن الحظ أنه كان فارغاً تقريباً . أتريدني أن أعدّ لك كأساً آخر يا بابا ؟ أنا أعرف كيف تحبه ، فقد رأيت كيف تعدّه لك خالتي .

قال دون ريغوبيرتو «لا» بحركة من رأسه . هل سمعَ جيداً ؟ أجل ، بالطبع : فلهذا السبب له أذنان كبيرتان . لكي يسمع الأشياء جيداً . بدأ دماغه يفرقع مثل محرقة . لقد مضت هذه المحادثة بعيداً جداً ولا بد من وقفها دفعة واحدة وإلى الأبد ، تحت طائلة حدوث شيء خطير لا تحمد عقباه . وتخيل للحظة قلعة بديعة مشيدة من أوراق اللعب تتهاوى . وكان يعي تماماً ما يتوجب عليه عمله . يكفي ، هذا يكفي ، فلنتحدث في أمر آخر . ولكن غناء حوريات الأعماق كان في هذه المرة أيضاً أقوى من تعقله وحصافته .

ـ أي تلفيقات هذه يا فونتشيتو ـ كان يتكلم ببطء ، ولكن صوته كان يرتعش بالرغم من ذلك ـ . كيف يمكن أن تكون قد سمعت من خالتك مثل هذا الشيء . هذا غير ممكن يا بني .

احتج الطفل غاضباً وهو يرفع إحدى يديه عالياً :

ـ بلى يا بابا . لقد سمعته بالطبع . لقد قالته هي لي . يوم أمس بالذات ، في المساء . أعطيك كلمتي . ولماذا سأكذب عليك ؟ وهل كذبتُ أنا يوما ؟

ـ لا ، لا ، معك حق . أنت تقول الصدق دائماً .

لم يستطع التحكم بالقلق الذي سيطر عليه مثل حمى . كان الضيق دبوراً بليداً يصطدم بوجهه ، بذراعيه ، ولا يستطيع هو إبعاده أو تجنبه . نهض واقفاً ، ومضى بخطوات بطيئة ليسكب جرعة أخرى من الويسكي ، وهو أمر فريد ، إذ أنه لم يكن يشرب أكثر من كأس واحدة قبل العشاء . وعندما رجع إلى مقعده ، التقى بعيني فونتشيتو الزرقاوين : إنهما تواصلان حركتهما بالتجول عبر المكتب بصلابتهما المعهودة . ابتسمتا له ، وبذل هو جهداً ، وابتسم له أيضاً .

« إحم ، إحم » ، تنحنح دون ريغوبيرتو بعد ثوان من الصمت البغيض . لم يدر ما يقول . هل من الممكن أن تكون لوكريثيا قد أسرت له بأشياء من هذا النوع ، وأنها تخبر الطفل بما يفعلانه ليلاً ؟ هذا غير ممكن بالتأكيد ، يا للحماقة . إنها تخيلات فونتشيتو ، وهو أمر شائع في مثل هذه السن : إنه يكتشف الخبث ، يتفتح فيه الفضول الجنسي ، والليبيدو الوليد يوحي إليه بتخيلات لكي يستثير محادثات حول المحرمات الفاتنة . من الأفضل نسيان كل ذلك والتخلص من هذه اللحظة السيئة بالتحول إلى أمور عادية أخرى .

سأله :

ـ أليس لديك واجبات مدرسية للغد ؟

ورد الطفل :

ـ لقد أنجزتها . لدي واجب واحد فقط يا بابا . إنه موضوع إنشاء حر .

وألح دون ريغوبيرتو :

ـ آه ، هكذا ؟ وأي موضوع اخترت ؟

وعاد وجه الطفل يتوقد بسعادة ساذجة . أحس دون ريغوبيرتو فجأة بخوف شديد . ما الذي يحدث ؟ ما الذي سيحدث ؟

ـ اخترتُ موضوعاً عنها بالطبع يا بابا ، وعن أي شيء آخر سأتحدث سواها . ـ وكان فونتشيتو يضرب كفاً بكف وهو يضيف : ـ وضعتُ له كعنوان «امتداح الخالة» . ما رأيك ؟

ـ جيد جداً ، إنه عنوان جيد ـ أجابه دون ريغوبيرتو . ثم أضاف وهو يضحك ضحكة زائفة ، ودون أن يفكر تقريباً : ـ يبدو مثل عنوان رواية إيروتيكية قصيرة .

فاستفسر الطفل بجدية كبيرة :

ـ ما معنى إيروتيكية ؟

وأوضح له دون ريغوبيرتو وهو يشرب كأسه في رشفات دون انتباه :

ـ إنه تعبير مرتبط بالحب الجسدي . هناك بعض الكلمات ، مثل هذه الكلمة ، لا تكتسب معناها إلا مع الزمن ، وبفضل التجربة ، وهو أمر أهم من التعريفات . كل هذا سيأتي شيئاً فشيئاً ؛ ليس هناك أي مبرر لأن تستعجل يا فونتشيتو .

ـ مثلما تريد يا بابا ـ وافق الطفل وهو يفتح عينيه ويغمضهما : كانت رموشه الهائلة تظلل جفونه بتقزح بنفسجي .

ـ هل تعرف أنني أرغب في قراءة هذا الموضوع عن «امتداح الخالة» ؟

وتحمس الطفل :

ـ بالطبع يا بابا ـ ثم نهض قافزاً وانطلق يركض ـ ، وهكذا يمكنك أن تصححه لي إذا كان هناك خطأ ما .

وخلال اللحظات القصيرة التي غابها فونتشيتو ، أحس دون ريغوبيرتو بتزايد الغم . ربما أكثرت من الويسكي ؟ لا ، ما هذه الفكرة . هل يكون هذا الضيق في الصدغين إشارة إلى أنني سأمرض ؟ هناك في المكتب عدد من المصابين بالزكام . لا ، ليس هذا هو الأمر . ما هو إذن ؟ وتذكر عبارة

فـاوسـت تلك التي أثرت فـيـه كـثـيـراً في صـبـاه : «أحبُّ من يرغب في المستحيل» . وقد كان يرغب في أن تكون شعاره في الحياة ، وكان يحس بطريقة ما ، وإن يكن بصورة سرية ، أنه قد بلغ ذلك المثل الأعلى . لماذا يراوده الآن هاجس مُقلِق بأن هناك هوة تنفتح تحت قدميه ؟ أي نوع من الخطر يتهدده ؟ كيف ؟ أين ؟ وفكر : «من المستحيل تماماً أن يكون فونتشيتو قد سمع لوكريثيا تقول «لقد بلغت رعشة جماع لذيذة» . داهمته نوبة ضحك فضحك ، ولكن دون أدنى قدر من السعادة ، إذ أبدى وجهه حركة محزنة أعادها إليه زجاج خزانة الكتب تكشيرة شهوانية . ها هو ذا ألفونسو قد رجع . كان يحمل دفتراً في يده . قدّمه إليه دون أن يقول شيئاً وهو ينظر إلى عينيه بثبات ، بتلك النظرة الزرقاء شديدة الهدوء والسذاجة التي تقول عنها لوكريثيا إنها «تجعل الناس يشعرون بأنهم قذرون» .

وضع دون ريغوبيرتو نظارته وأضاء مصباح الركن . بدأ يقرأ بصوت عالٍ الحروف الواضحة المكتوبة بحبر أسود ، ولكنه صمت عند منتصف الجملة الأولى . وواصل القراءة بصمت ، محركا شفتيه حركات خفيفة ومكثراً من تحريك رموشه . وفجأة توقفت شفتاه عن الحركة . وأخذتا بالانفتاح ، حتى كستا وجهه بملامح البلاهة والحمق . تدلى خيط لعاب من بين أسنانه ولوث ياقة سترته ولكنه لم ينتبه إليه كما يبدو لأنه لم يمسحه . كانت عيناه تتحركان من اليسار إلى اليمين ، بسرعة أحياناً ، وببطء في أحيان أخرى ، وقد تتراجعان في بعض اللحظات وكأنهما لم تفهما جيداً أو أنهما لم تتقبلا أن يكون ما قرأتاه مكتوباً هناك فعلاً . وخلال الوقت الذي دامته القراءة ، القراءة اللانهائية ، لم ترتفع عينا دون ريغوبيرتو مرة واحدة عن الدفتر لتنظرا إلى الطفل الذي ما يزال هناك دون شك ، راصداً ردود فعله ، منتظراً أن ينتهي من القراءة وأن يقول ويفعل ما يجب عليه أن يقوله ويفعله . ماذا

يتوجب عليه أن يقول ؟ ماذا يتوجب عليه أن يفعل ؟ أحس دون ريغوبيرتو بيديه مبللتين . وانزلقت قطرات من العرق عن جبهته إلى الدفتر ومددت الحبر في بقع غير منتظمة . وبينما هو يبتلع لعابه ، فكر بصواب : «حب المستحيل له ثمن يجب دفعه عاجلاً أو آجلاً» .

بذل أقصى جهد وأغلق الدفتر ونظر . أجل ، ها هو ذا فونتشيتو ، يتأمله بوجهه السعيد الجميل . «هكذا يجب أن يكون وجه الشيطان» ، فكر بذلك وهو يرفع الكأس الفارغة إلى فمه ، بحثاً عن رشفة . ولكن اصطكاك الكأس بأسنانه نبهه إلى أن رعشة يده قوية جداً .

ـ ما معنى هذا يا ألفونسو ؟ ـ قال متلعثماً . وكان يحس بألم في أضراسه ، في لسانه ، في فكه . ولم يتعرف على صوته .

ـ أي شيء يا بابا ؟ ـ وكان ينظر إلى أبيه وكأنه لا يفهم ما جرى له .

ـ ما الذي تعنيه هذه... التخيلات ـ تلعثم من الاضطراب المرعب الذي يعذب روحه ــ . هل أصابك الجنون يا ولد ؟ كيف أمكن لك أن تختلق مثل هذه القذارات الفاحشة ؟

صمت لأنه لم يعرف ما يقول ولأنه كان يشعر بالاستياء والذهول مما قاله . بدأ وجه الطفل ينطفئ ، يكتسي بالحزن . كان ينظر إليه دون أن يفهم ، وبشيء من الألم في الحدقتين ومن التشوش أيضاً ، ولكن دون أي ظل من الخوف . وأخيراً ، بعد بضع ثوان ، سمعه دون ريغوبيرتو يقول ما كان ينتظر سماعه وسط الرعب الذي جمّد قلبه :

ـ أيّ اختلاقات يا بابا . كل ما أرويه هو صحيح ، وكله جرى مثلما أرويه .

في هذه اللحظة ، وفي تزامن خُيل إليه أن القدر هو لذي حسمه أو الآلهة ، سمع دون ريغوبيرتو الباب الخارجي يُفتح ، وصوت دونيا لوكريثيا

توجه تحية المساء لكبير الخدم . واستطاع أن يفكر بأن العالم الليلي الغني ، عالم الأحلام والرغبات الطليقة الذي شيده بجهود كبيرة قد انفجر مثل فقاعة صابون . وفجأة ، تمنت مخيلته المهانة ، بقنوط ، أن يتحول : إنه متفرد ، عفيف ، متخلص من الشهوات ، وبمنأى عن كل أبالسة الجسد والجنس . أجل ، أجل ، هذا هو . إنه الناسك ، القديس ، الراهب ، الملاك ، رئيس الملائكة الذي ينفخ البوق السماوي وينزل إلى البستان ليحمل البشارة إلى الفتيات القديسات .

ـ مرحباً ، مرحباً أيها السيد ، وأيها السيد الصغير ـ غردت دونيا لوكريثيا من عتبة غرفة المكتب .

ووجهت يدها الثلجية قبلات طائرة إلى الأب والابن .

« ١٤ »

الشاب الوردي[1]

حر الظهيرة جعلني أغفو فلم أشعر بمجيئه . ولكنني فتحت عيني ووجدته هناك ، عند قدمي ، وسط هالة نور وردية . أكان هناك حقاً ؟ أجل ، فأنا لم أحلم بذلك . لا بد أنه دخل من الباب الخلفي الذي يبقيه أبواي مفتوحاً ، أو ربما قفز عن سور الحديقة ، وهو سور يمكن لأي صبي أن يقفز عنه دون صعوبة .

من هو ؟ لست أدري ، ولكنني متأكدة من أنه كان هنا ، في هذا الممر نفسه ، جاثياً عند قدمي . لقد رأيته وسمعته . وقد غادر للتو . أم أنه من الأفضل أن أقول إنه قد تلاشى ؟ أجل : لقد جثا عند قدمي . لست أدري لماذا ركع ، ولكنه لم يفعل ذلك للسخرية مني . فمنذ البدء عاملني برقة وتوقير بالغين ، وأبدى الكثير من الاحترام والتذلل ، فداهمني القلق لرؤية غريب ، على مقربة مني ، يتبخر مثلما يتبخر الندى تحت الشمس . وكيف يمكن ألا أتوجس خيفة وأنا أجد نفسي على انفراد مع غريب ؟ مع شخص لا أعرف فوق ذلك كيف دخل إلى حديقة بيتي ؟ لستُ أفهم ما حدث . ولكن

---

(٤) راجع اللوحة رقم (٦)

الشاب كان هنا طوال الوقت ، يحدثني وكأنه يحدث امرأة مهمة وليس الفتاة المتواضعة التي هي أنا ، وأحسست بأنني محمية أكثر مما أكون عليه وأنا محاطة بأبويَّ أو وأنا في المعبد في أيام السبت .

كم كان جميلاً! يجب علي ألا أقول ذلك ، ولكن الصحيح هو أنني لم أر أبداً من قبل كائناً بمثل هذا التناسق والرقة ، بتقاطيع لها مثل هذا الكمال وصوت بمثل هذه العذوبة . كنت أكاد لا أستطيع النظر إليه ؛ فكلما مرت عيناي على خديه اللينين ، على جبهته النقية أو على رموشه الطويلة المحيطة بعينيه الواسعتين والممتلئتين بالطيبة والحكمة ، أشعر في وجهي بفجر حار . أيكون هذا هو ما تشعر به الفتيات ، في كامل أجسادهن عندما يقعن في الحب ؟ أهذا هو الحر الذي لا يأتي من الخارج ، وإنما من داخل الجسد ، من أعماق القلب ؟ صديقاتي في القرية يتحدثن كثيراً عن هذا الأمر ، أنا أعرف ذلك ، ولكنني عندما أقترب منهن يصمتن لأنهن يعرفن أني خجولة جداً وأن بعض المواضيع ـ مثل موضوع الحب مثلاً ـ تسبب لي اضطراباً شديداً فيحمر وجهي وأبدأ بالارتعاش . أيكون ذلك سيئاً ؟ استير تقول إنني لن أعرف الحب أبداً لأنني هيابة وخجولة . وتحاول ديبورا دائماً أن تشجعني : «عليك أن تكوني أكثر جرأة وإلا ستكون حياتك حزينة» .

ولكن الشاب الوردي يقول إنني أنا المختارة ، وإنهم قد اختاروني من بين كل النساء . من هم ؟ لماذا ؟ لأي شيء ؟ أي عمل طيب أو خبيث قمتُ به لكي يفضلني أحدهم على سواي ؟ أنا أعرف جيداً ضآلة قيمتي . هناك في القرية فتيات أجمل وأنشط ، أقوى ، أكثر تنوراً ، وأشد شجاعة . فلماذا يختارونني أنا إذن ؟ ألأنني أكثر تحفظاً وذعراً ؟ أمن أجل صبري ؟ ألأنني أعامل الجميع جيداً ؟ أبسبب الحنان الذي أحلب به عنزتنا والسعادة التي يبعثها فيَّ القيام بأعمال البيت اليومية البسيطة ، مثل تنظيف البيت ، وسقاية

الحديقة ، وإعداد الطعام لأبوي ؟ لا أظن أن لديّ مزايا أكثر من هذه ، إذا كانت هذه مزايا وليست عيوباً . لقد قالت لي ديبورا قبل حين : «أنتِ بلا طموح يا مريم» . وربما كان هذا صحيحاً . وماذا سأفعل إذا كنت قد ولدت هكذا : فالحياة تروقني وتبدو لي الدنيا جميلة بحالها التي هي عليها . لهذا يقولون إنني بسيطة . وأنا كذلك دون شك ، لأنني أتجنب التعقيدات دوماً . ولكن لدي مع ذلك بعض الرغبات . فأنا أرغب ، مثلاً ، في ألا تموت عنزتي مطلقاً . عندما تلحس يدي أفكر في أنها ستموت يوماً وعندئذ ينقبض قلبي . التألم ليس جيداً . وأنا أرغب كذلك في ألا يتألم أحد .

لقد قال الشاب أشياء سخيفة ، ولكنه قالها بطريقة شجية وبريئة بحيث لم أتجرأ على الضحك منه . سيباركونني أنا وثمرة بطني . هذا ما قاله . أيكون ساحراً يا ترى ؟ ألا تكون كلماته هذه رقية لمصلحة شيء أو أحد أو ضده ؟ لم أعرف كيف أسأله . واكتفيت بالرد على كلماته باللعثمة التي أرد بها عندما يعلّمني أبواي أو يؤنباني : «لا بأس ، سأفعل ما هو متوجب عليّ يا سيدي» . وغطيت بطني بيدي مذعورة . أيعني بقوله «ثمرة بطني» أنه سيكون لي ابن ؟ يا للسعادة التي سأشعر بها . عسى أن يكون الوليد ذكراً عذباً وسرياً مثل الشاب الذي أتى لرؤيتي .

لستُ أدري إذا ما كان علي أن أفرح أم أحزن لهذه الزيارة . أهجس بأن حياتي ستتغير بسببها . إلى أي حال ستتغير ؟ هل سيكون خيراً لي أم نكبة ؟ لماذا أشعر فجأة بالخوف ، وأنا في غمرة البهجة التي يبعثها فيّ تذكر كلمات ذلك الشاب العذبة ، أشعر فجأة وكأن الأرض تنشق وتظهر عند قدمي هوة ممتلئة بمسوخ مرعبين يريدون إجباري على القفز إليها .

لقد قال أشياء جميلة ، لها رنين عذب ، ولكن من الصعب فهمها . وكان مما قاله : «قَدَر استثنائي ، قدر خارج على المألوف» . ما الذي

يعنيه ؟ فطريقتي في الحياة تخصني بقَدَرٍ أقرب إلى المألوف ، إلى ما هو عادي . وكل ما يميز أو يسبب الاختلاف ، أي حركة أو عمل يخرق العادة أو العرف يكبحني ويجردني من السلاح . عندما يبالغ أحدهم أمامي ، ويصير أضحوكة ، يلتهب وجهي وأشعر بالشفقة عليه . ولستُ أشعر بالراحة إلا عندما أحس بأن الآخرين لا يلحظونني . «مريم متكتمة جداً حتى أنها تبدو غير مرئية» ، هكذا تقول لي جارتي راكيل مازحة . وأنا أحب سماع ذلك . أجل ؛ فكوني غير مرئية يجعلني سعيدة .

ولكن هذا لا يعني أنني بلا أحلام وبلا أحاسيس . وإنما أنني لم أشعر بالانجذاب يوماً نحو ما هو استثنائي .. صديقاتي يسببن لي الذهول حين أسمعهن : إنهن يرغبن في السفر ، وفي امتلاك عبيد كثيرين ، وفي الزواج من ملك . أنا تخيفني هذه التخيلات . فما الذي سأفعله في بلاد أخرى ، بين أناس مختلفين عن معشري ، مستمعة إلى لغات أخرى ؟ وأي ملكة مثيرة للشفقة ساكون أنا التي أفقد صوتي وترتعش يداي حين يكون هناك غريب يسمعني . ما أطلبه من الحياة هو زوج شريف ، وأبناء أصحاء وحياة هادئة ، دون خوف ولا جوع . ما الذي عناه بقوله «قَدَر استثنائي ، خارق للمألوف» ؟ لقد منعني خجلي من الرد عليه بالرد المناسب : «أنا لستُ مهيأة لهذا ، أنا لستُ هذه التي تتكلم عنها . من الأفضل أن تذهب إلى حيث ديبورا الجميلة أو إلى جوديت فهي أشد حزماً ، أو إلى بيت راكيل ، الفتاة الذكية . كيف يمكن لك أن تبشرني أنا بأنني سأكون ملكة بني البشر ؟ كيف تقول إنهم سيصلّون لي بكل اللغات وأن اسمي سيجتاز العصور مثلما تجتاز الكواكب السماء ؟ أنت أخطأت بالفتاة والبيت يا سيدي . فأنا شيء ضئيل لا أنفع لهذه الأمور العظيمة . بل إنني أكاد لا أكون موجودة» .

وقبل أن ينصرف الشاب ، انحنى وقبل طرف عباءتي . ولثانية واحدة ،

رأيت ظهره : كان فيه قوس قزح ، وكما لو أن جناحي فراشة قد حطا هناك .

لقد انصرف الآن وخلّف رأسي يضج بالشكوك . لماذا ناداني بالسيدة مع أنني ما أزال عازبة ؟ لماذا دعاني ملكة ؟ لماذا لمحت بريق دموع في عينيه عندما تنبأ لي بأنني سأتعذب ؟ لماذا دعاني أماً وأنا ما أزال عذراء ؟ ما الذي يحدث ؟ ما الذي سيصيبني بدءاً من هذه الزيارة ؟

خاتمة

ـ ألا تشعر بتأنيب الضمير أبداً يا فونتشيتو ؟ ـ سألته خوسينيانا فجأة . كانت ترتب وتطوي فوق كرسي الملابس التي يخلعها الطفل كيفما اتفق ويلقي بها بعد ذلك كمن يقوم بتمريرات في كرة السلة .

وذهل الصوت البلوري :

ـ تأنيب ضمير ؟ ومم سيؤنبني ضميري يا خوستيتا ؟

وبينما هي منحنية لتلتقط زوج جوارب ذات معينات خضراء ورمانية ، راقبته من خلال مرآة الخزانة : كان ألفونسو قد جلس على حافة السرير وبدأ بارتداء سروال البيجاما ، وهو يمدد ويُقلص ساقاه . ورأت خوستينيانا قدميه البيضاوين الرشيقتين تطلان بعكبيهما المتوردين ، رأتهما تحركان الأصابع العشرة وكأنهما تمارسان تمارين رياضية . وأخيراً ، التقت نظرتها بنظرة الطفل الذي ابتسم لها على الفور .

ـ لا تبدي لي هذا الوجه الذي مثل ناموسة ميتة يا فونتشو ـ قالت وهي تنهض . ضربت مؤخرتها وتنهدت وهي ترى الطفل الحائر . وأحست مرة أخرى بأن الغضب سيهزمها ، فأضافت : ـ أنا لستُ هي . فلن تتمكن من

خداعي أو شرائي بإظهار وجه الطفل القديس هذا . قل لي الحقيقة مرة واحدة . ألا تشعر بتأنيب الضمير ؟ ولو بقدر قليل ؟

أطلق ألفونسو قهقهة مدوية وهو يفتح ذراعيه ، وهوى على ظهره فوق السرير . حرك ساقيه المرفوعتين عالياً وكأنه يرمي ويتلقى كرة مُتَخيلة . كانت ضحكته قوية وبليغة ولم تلمح خوستينيانا فيها أي ظل من السخرية أو النية الخبيثة . وفكرت : «اللعنة ، من يستطيع أن يفهم هذا الطفل ذا المخاط» .

ـ أقسم لك بالله إنني لا أعرف عم تتكلمين ـ هتف الطفل وهو يستوي جالساً . وقبّل أصابعه المتصالبة بقناعة ـ . أم أنك توجهين لي أحجية يا خوستيتا ؟

ـ اندس في الفراش دفعه واحدة لأنك قد تصاب بالرشح . ليست لدي أي رغبة في العناية بك .

أطاعها ألفونسو على الفور . قفز ، رفع الملاءات ، وانزلق ما بينها برشاقة ورتب وضع الوسادة وراء ظهرة . وبقي بعد ذلك ينظر إلى الفتاة بدلال ، وكأنه سيتلقى جائزة . كان شعره يغطي جبهته وكانت عيناه الزرقاوين تلمعان في الظلمة الخفيفة السائدة ، لأن ضوء المصباح الخافت كان يتوقف عند خديه . وكان فمه الذي بلا شفتين منفرجاً قليلاً يلمع فيه صف الأسنان البيضاء التي نظفها بالفرشاة للتو .

قالت هي :

ـ إني أكلمك عن دونيا لوكريثيا أيها الشيطان الصغير ، وأنت تعرف ذلك جيداً ، فلا تتصنع . ألا يحزنك ما فعلته بها ؟

ـ آه ، أنت تتكلمين عنها ـ هتف الطفل بخيبة أمل ، وكأن الموضوع منته وممل بالنسبة إليه . وهز كتفيه ولم يتردد لحظة عندما أضاف قائلاً : ـ ولماذا سأحزن من أجلها ؟ لو أنها أمي لكنت حزنت . هل هي أمي ؟

لم يكن هناك ضغينة ولا غضب في صوته أو في ملامحه وهو يتكلم عنها ؛ ولكن هذه اللامبالاة بالتحديد هي التي كانت تثير غضب خوستينيانا .

ـ جعلتَ أباك يطردها من هذا البيت مثل كلبة ـ همست منطفئة ، حزينة ، دون أن تلتفت نحوه ، وعيناها مصوبتان على الأرضية الخشبية اللامعة ـ . كذبتَ عليها أولاً ثم كذبت عليه بعد ذلك . جعلتهما ينفصلان حين كانا في أوج سعادتهما . لا بد أنها الآن أتعس امرأة في الدنيا ، وكل ذلك بسببك . ودون ريغوبيرتو كذلك ، فمنذ انفصل عن خالتك صار يبدو مثل روح محزونة . ألم تلاحظ كيف أثقلت السنون كاهله خلال أيام قليلة ؟ ألا يُشعرك هذا أيضاً بتأنيب الضمير ؟ لقد تحول إلى متدين وبليد لم أعرف له مثيلاً . الرجال يتحولون هكذا عندما يشعرون بأنهم سيموتون . وكل هذا بسببك أيها الخبيث!

التفتت نحو الطفل مذعورة ، وهي تظن بأنها قد قالت أكثر مما يستوجبه الحذر . فمنذ أن حدث ما حدث لم تعد تثق بأحد ولا بشيء في هذا البيت . كان رأس فونتشيتو قد تقدم باتجاهها بينما مخروط ضوء المصباح يحيطه مثل تاج . وكان ذهوله يبدو دون حدود .

ـ ولكنني لم أفعل شيئاً يا خوستيتا ـ تلعثم وهو يرمش ، ورأت هي أن تفاحة آدم تعلو وتنخفض في عنقه مثل حيوان عصبي ـ . أنا لم أكذب أبداً على أحد ، وخصوصاً على بابا .

أحست خوستينيانا بوجهها يتوقد :

ـ لقد كذبتَ على الجميع يا فونتشيتو! ـ رفعت صوتها وهي تقول ذلك . ولكنها صمتت ، مغلقة فمها بيدها ، إذ سُمع في تلك اللحظة سقوط الماء في المغسلة في الطابق العلوي . كان دون ريغوبيرتو قد بدأ تنظيفاته الليلية التي صارت ، منذ ذهاب دونيا لوكريثيا ، أقصر بكثير . إنه ينام الآن باكراً ولم

يعد يدندن أغنيات بينما هو يغتسل . وعندما عادت خوستينيانا إلى التكلم ، فعلت ذلك بصوت خافت ، موبخة الطفل بإصبعها السبابة : ـ وكذبتَ عليّ أنا أيضاً بالطبع . عندما أفكر في أنني صدقتُ كلامك عن أنك ستنتحر لأن دونيا لوكريثيا لم تعد تحبك .

امتقع الآن وجه الطفل فجأة .

ـ لم يكن كذباً ـ قال لها وهو يمسكها من ذراعها ويهزها ـ . كان ما قلته صحيحاً ، ومثلما قلته لك . فلو واصلت خالتي معاملتي مثلما فعلتْ في تلك الأيام لكنت قتلت نفسي . أقسم لك أنني كنت سأفعل يا خوستيتا!

سحبت الفتاة ذراعها منه باستياء وأشاحت بوجهها مدمدمة :

ـ لا تحلف باطلاً لأن الرب سيعاقبك .

مضت إلى النافذة ، وحين أزاحت الستارة ، لاحظت أن بعض النجوم تسطع متألقة في السماء . وقفت تتأملها بدهشة . كم هو نادر رؤية هذه الأنوار المتلألئة بدلاً من الضباب المعهود . وعندما التفتت ، كان الطفل قد تناول الكتاب عن الكوميدينو ورتب وضع الوسادة مستعداً للقراءة . وكان يبدو عليه مجدداً الاطمئنان والسعادة ، والمصالحة مع ضميره ومع العالم .

ـ أخبرني شيئاً واحداً على الأقل يا فونتشيتو .

كان ماء المغسلة في الأعلى يسيل في خرير متواصل ومتشابه ، وكان هناك هران يموءان على السطح في صراع أو جماع .

ـ أي شيء يا خوستيتا ؟

ـ هل خططت لكل شيء منذ البداية ؟ التظاهر بأنك تحبها كثيراً ، وصعودك على السطح بينما هي تستحم ، ورسالة التهديد بقتل نفسك . هل فعلت كل ذلك كذباً ؟ هل فعلت كل ذلك من أجل أن تحبك هي فتتمكن حينئذ من اتهامها أمام أبيك بأنها تُفسدك ؟

وضع الطفل الكتاب على الكوميدينو مشيراً إلى الصفحة بقلم رصاص . وأثارت وجهه تكشيرة غضب .

ـ أنا لم أقل أبداً أنها تفسدني يا خوستيتا! ـ صاح مهتاجاً وضارباً الهواء بإحدى يديه ـ هذا ما تخترعينه أنتِ ، لا تخادعي . أبي هو الذي قال إنها تُفسدني . ما فعلته أنا هو كتابة موضوع الإنشاء ذاك ، وقد رويت فيه ما كنا نفعله . الحقيقة فقط . لم أكذب في أي شيء . وأنا لست مذنباً في أنه قد طردها . وربما كان صحيحاً ما قاله . ربما كانت تُفسدني بالفعل . إذا كان أبي يقول ذلك ، فلأنه صحيح . ولماذا تقلقين كثيراً لهذا ؟ أكنت تفضلين الذهاب معها على البقاء في هذا البيت ؟

أسندت خوستينيانا ظهرها إلى الخزانة حيث يضع الفونسو كتب المغامرات ، والجوائز وشهادات التقدير والصور المدرسية . أغمضت عينيها وفكرت : «أجل ، كان يجب عليّ أن أغادر منذ زمن» . فهي تشعر ، منذ أن ذهبت دونيا لوكريثا ، بهاجس أن الخطر يتهددها هي أيضاً هنا وتعيش على الجمر ، مع الإحساس الدائم بأنها إذا ما سهت لحظة واحدة فستقع أيضاً في كمين يكون خروجها منه أسوأ حالاً من الخالة . لقد كانت مواجهتها للطفل بهذه الطريقة عملاً متهوراً . ولن تفعل ذلك أبداً بعد الآن لأن فونتشيتو ليس طفلاً ، بالرغم من كونه كذلك في السن ، وإنما هو شخص صاحب نزوات والتواءات أكثر من كل الشيوخ الذين عرفتهم . ومع ذلك ، مع ذلك ، من يستطيع أن يصدق هذا كله حين ينظر إلى هذا الوجه العذب ، إلى تقاطيع الدمية هذه .

وسمعته يقول لها بأسف :

ـ هل أنتِ غاضبة مني على شيء ؟

من الأفضل عدم استثارته أكثر ؛ من الأفضل التصالح معه .

ـ لا ، لستُ غاضبة ـ ردت وهي تتقدم باتجاه الباب ـ . لا تُطِلْ القراءة ، فغداً عليك الذهاب إلى المدرسة . طابت ليلتك .

ـ خوستيتا .

التفتت لتنظر إليه وقد أصبحت يدها على مقبض الباب .

ـ ماذا تريد ؟

ـ أرجوك ألا تغضبي مني . ـ كان يتوسل إليها بعينيه وبرموشه الطويلة ؛ يرجوها بفمه المغضن كمن هو موشك على البكاء ، وبغمازتي خديه النابضتين ـ . أنا أحبك كثيراً . أما أنتِ بالمقابل فتكرهينني ، أليس كذلك يا خوستيتا ؟

كان يتكلم وكأنه سينفجر بالبكاء .

ـ لستُ أكرهك أيها الأحمق.. كيف يمكنني أن أكرهك .

كان الماء ما يزال يتدفق في الطابق العلوي بصوت رتيب ، تقطعه دفقات قوية قصيرة ، وكانت تُسمع كذلك بين حين وآخر ، خطوات دون ريغوبيرتو وهو يتنقل من جهة إلى أخرى في الحمام .

ـ إذا كنت لا تكرهينني فعلاً ، فأعطني قبلة وداع على الأقل . مثلما كنت تفعلين في السابق ، هل نسيتِ ؟

ترددتْ لحظة ، ولكنها وافقت بعد ذلك . انحنت وقبلته بسرعة من شعره . ولكن الطفل أوقفها ملقياً بذراعيه حول عنقها وهو يبدي لها التظارف والتحبب إلى أن ابتسمت له خوستينيانا رغم إرادتها . فحين رأته في تلك الحال ، يُخرج لسانه ويقلب عينيه ، ويهز رأسه ، ويرفع كتفيه وينزلهما ، لم يعد يبدو لها الشيطان القاسي الذي يحمله في داخله ، وإنما الطفل الجميل الذي كانه من الخارج .

ـ كفى ، كفى ، دعك من التهريج وإلى النوم يا فونتشو .

عادت تقبله من شعره وتنهدت . وعلى الرغم من أنها عاهدت نفسها للتو ألا تحدثه ثانية في تلك المسألة ، إلا أنها سمعت نفسها تقول متسرعة ، وهي تتأمل ذلك الشعر الذهبي الذي يلامس أنفها :

ـ هل فعلتَ كل ذلك من أجل دونيا إيلويسا ؟ ألأنك لا تريد أن يحل أحد محل أمك ؟ لأنك لم تتحمل أن تحتل دونيا لوكريثيا مكان أمك في هذا البيت ؟

أحست بأن الطفل قد أصيب بالتشنج والصمت ، وكأنه يفكر بما يجب عليه أن يقول . ثم ضغط الذراعان النحيلان اللذان يحيطان بعنقها لإجبارها على إنزال رأسها بحيث يمكن للفم الصغير الذي بلا شفتين أن يدنو من أذنها . ولكنها بدلاً من أن تسمعه يهمس لها بالسر الذي تنتظره ، أحست بأنه يعضها ويقبلها من حافة أذنها وبداية عنقها إلى أن جعلها ترتعش من الدغدغة .

ثم سمعته يهمس برقة مخملية :

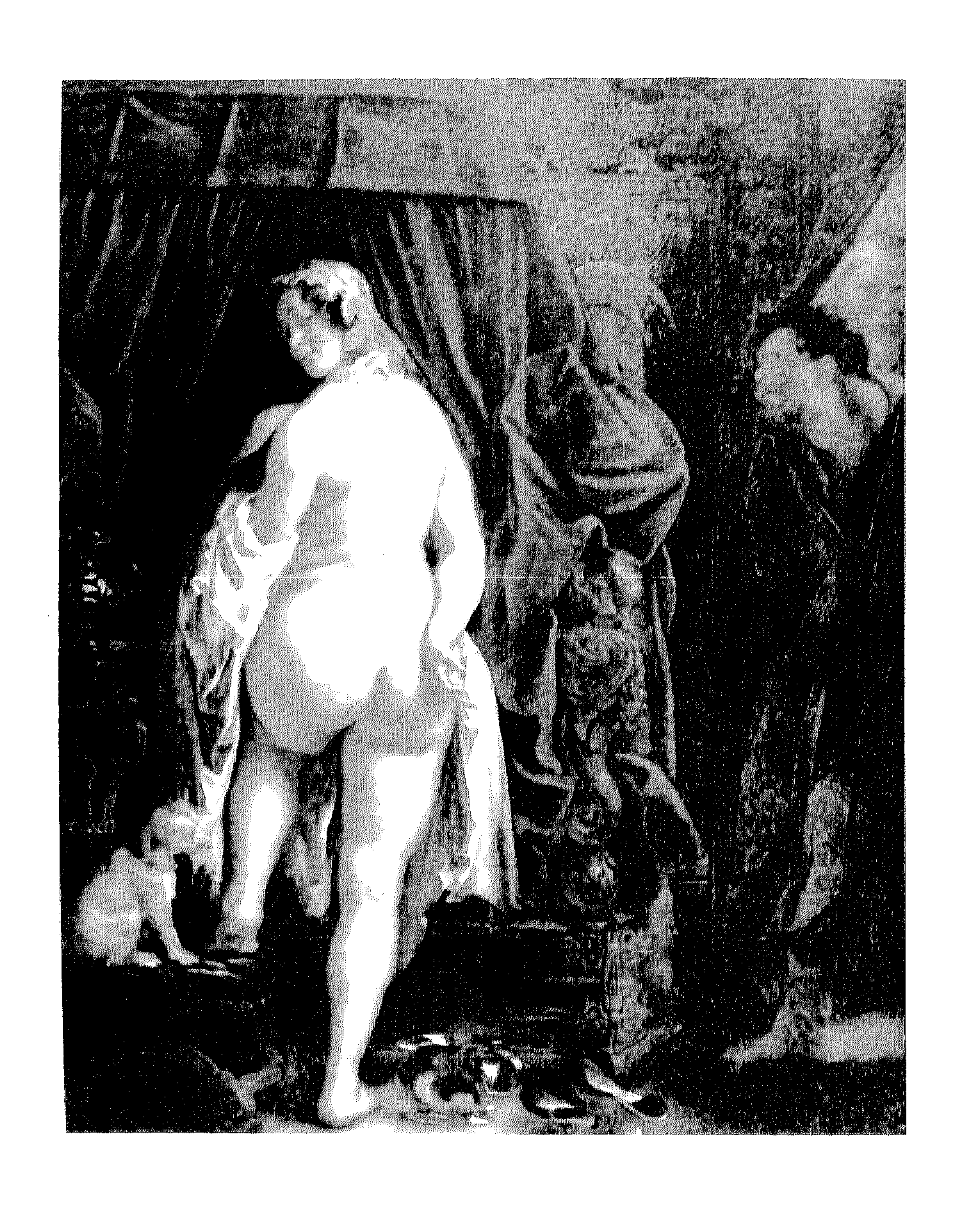
ـ لقد فعلت ذلك من أجلك أنت يا خوستيتا ، وليس من أجل أمي . لكي تغادر هذا البيت ونبقى وحدنا ، أنا وأنت ، مع بابا . لأنني أحـ ...

وأحست الفتاة فجأة بفم الطفل يلتصق بفمها .

ـ رباه ، رباه ـ تملصت من بين ذراعيه وهي تدفعه وتبعده عنها . وخرجت متعثرة من الغرفة ، تمسح فمها بيدها وترسم إشارة الصليب . وكان يبدو لها أن قلبها سينفجر من الغضب إذا هي لم تستنشق هواء ـ . رباه ، رباه .

وحين صارت خارجاً ، في الممر ، سمعت فونتشيتو يضحك مرة أخرى . ليس بتهكم ، ولا ساخراً من الحياء والسخط اللذين سيطرا عليها . بل بسعادة حقيقية ، وكأنه يحتفل بأمر ظريف . كانت ضحكته الطازجة ،

المدوية ، الصحية ، الطفولية تكنس صوت ماء المغسلة ، وتبدو وكأنها تملأ الليل كله وتصعد حتى تلك النجوم التي أطلت ، لمرة ، في سماء ليما الموحلة .

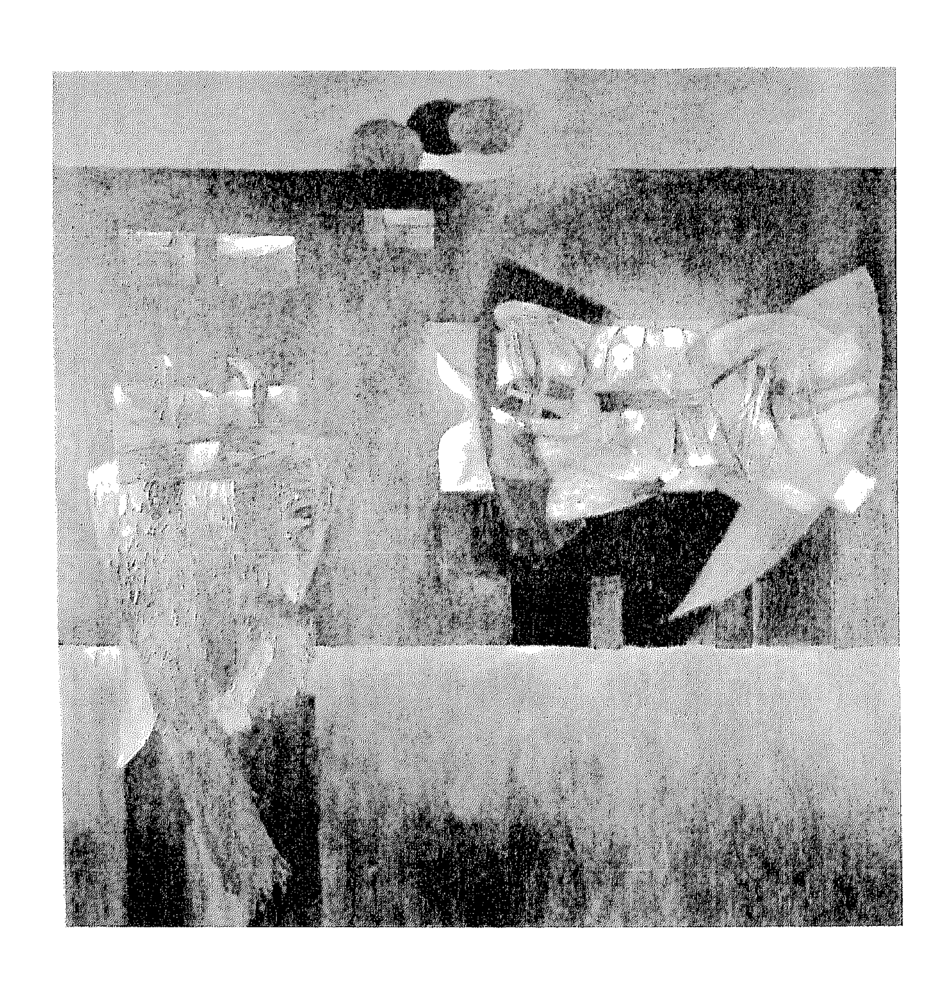


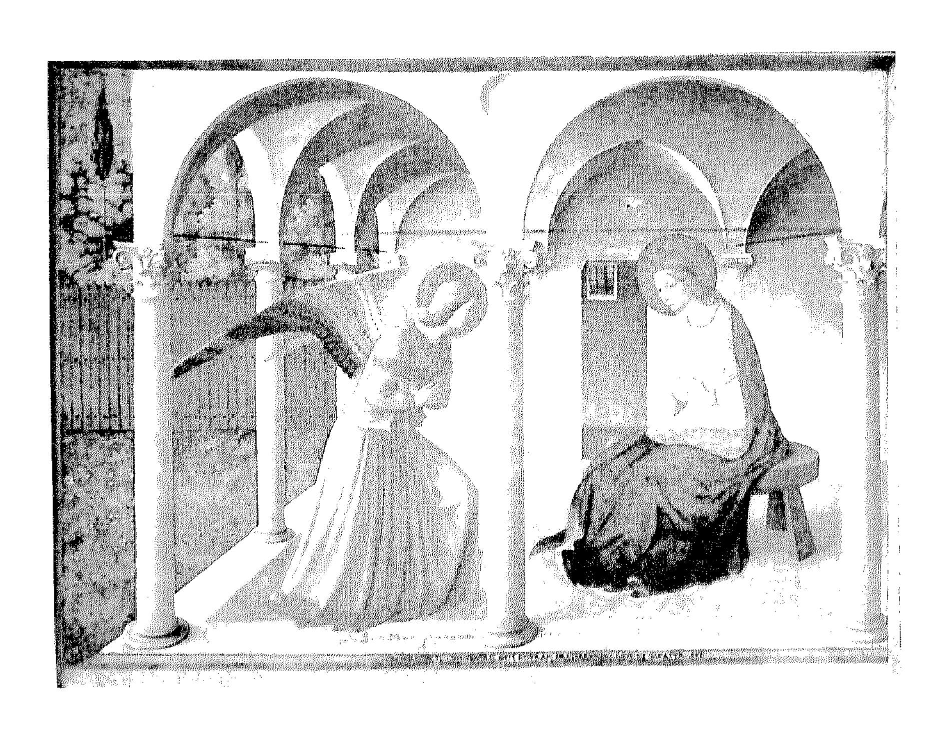
[١]











فهرس اللوحات

(١) جاكوب جوردانس ، «قنداولس ملك ليديا يعرض زوجته على الوزير الأول جيجس» (١٦٤٨) ، رسم زيتي على القماش ، متحف استوكهولم الوطني .

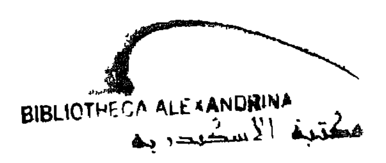
(٢) فرانسيس بوشير ، «ديانا بعد حمامها» (١٧٤٢) ، رسم زيتي على القماش ، متحف اللوفر ، باريس .

(٣) تيزيانو فيسيليو ، «فينوس مع آمور والموسيقى» ، رسم زيتي على القماش ، متحف البرادو ، مدريد .

(٤) فرانسيس بيكون ، «رأس I »(١٩٤٨) ، رسم بالزيت ، مجموعة ريتشارد س . زيسلر ، نيويورك .

(٥) فرناندو دي زيزلو ، «طريق إلى ميندينا ١٠» (١٩٧٧) ، أكريليك على قماش ، مجموعة خاصة .

(٦) فرا آنجيليكو ، «البشارة» (١٩٢٧) فريسكو ، دير سان ماركوس ، فلورنسا .



ولد ماريو بارغاس يوسا في اريكيبا (البيرو) عام ١٩٣٦ .

برز في عالم الأدب بعد نشر روايته الأولى «المدينة والكلاب» التي نال عليها جائزة ببليوتيكا بريفي عام ١٩٦٢ وجائزة النقد عام ١٩٦٣ ، وترجمت على الفور إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية . وفي عام ١٩٦٦ ظهرت روايته الثانية «البيت الأخضر» التي نالت جائزة النقد لعام ١٩٦٦ وجائزة روميلو غاييغوس .

من أعماله الروائية الأخرى ، «محادثة في الكتدرائية» ، و«بانتاليون والزائرات» و«الخالة جوليا والمخربش» ، والرواية التاريخية «حرب نهاية العالم» ، و«قصة مايتا» ، و«من قتل بالومينو موليرو؟» و«ليتوما في الانديز» (جائزة بلانيتا ١٩٩٣) وأصدر أخيراً رواية «دفاتر دون ريغوبيرتو» (١٩٩٧) التي تعتبر استمراراً لرواية «امتداح الخالة» .

حصل عام ١٩٩٤ على «جائزة ثربانتس للآداب» وهي أهم جائزة للآداب الناطقة بالاسبانية .

له عدد من الدراسات النقدية العميقة ، منها «غارسيا ماركيز ، قصة محطم آلهة» (١٩٧١) ، و«المجون الأبدي ، فلوبير ومدام بوفاري» (١٩٧٥) ، إضافة إلى كتاب بعنوان «السمكة في الماء» ويروي فيه تجربته السياسية كمرشح لرئاسة الجمهورية في البيرو .

ISBN => 2-84305-161-4
EAN => 9782843051615